الشعر العربي
في بغداد
في عصورها الزاهية

بقلم الأستاذ الدكتور
وليد محمود خالص

obeikan

إضاءات

– ١ –

قـــال يوسف بن موسى : سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول : قال لي محمد بن إدريس الشافعي : يا يونس، دخلت بغداد؟ قلت : لا! قال : ما رأيت الدنيا، ولا رأيت الناس.

[تاريخ بغداد ١/٤٥]

– ٢ –

سمعت القاضي أبا القاسم علي بن المحسن التنوخي يقول : كان يقال من محاسن الإسلام : يوم الجمعة ببغداد، وصلاة التراويح بمكة، ويوم العيد بطرسوس.

[تاريخ بغداد ١/٤٧]

– ٣ –

حدثني أبو القاسم عبيد الله بن علي الرقّي – وكان أحد الأدباء – قال : أخذ أبو العلاء المعري وهو ببغداد يومًا يدي فغمزها، ثم قال لي : يا أبا القاسم، هذا بلد عظيم، لا يأتي عليك يوم وأنت به إلا رأيت فيه من أهل الفضل مَنْ لم تَرَه فيما تقدّم.

[تاريخ بغداد ١/٤٩ – ٥٠]

– ٤ –

أُودعكـم يا أهـل بغـداد والحشـا ... على زفـرات ما ينـين من اللَّذع
ألا زودونـي شـربـة ولـو أنـنـي ... قدرت إذن أفنيت دجلة بالجَـرْعِ
ومـا الفُصَـحَاء الصِّيـدُ والـبـدو دارهـا ... بأفصـح قـولاً من إمائكـم الوكـع
أدرتـم مقـالاً فـي الـجـدال بألـسـن ... خُلقـن فجـانبن الـمـضرة للنفـعِ

[شيخ المعرة، أبو العلاء]

— ٥ —

بغداد .. أم الدنيا وسيدة البلاد

[ياقوت في معجم البلدان ١/ ٤٥٦]

— ٦ —

بغداد .. المدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبرًا وعمارة .. ولأنه سكنها من أصناف الناس .. وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية، وآثــرها جميع أهــل الآفاق على أوطانهم .. فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا.

[البلدان لليعقوبي (ص : ٢٣٣)]

— ٧ —

بغداد .. محل الخلفاء، ومركز الوزراء، ومأوى بني هاشم .. هي سرّة الدنيا، وخزانة الأرض، ومعدن العلم، وينبوع الحكمة.

[بغداد لابن الفقيه (ص : ٦٠)]

— ٨ —

قال الخطيب : لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها، ومجيدي شعرائها .. واجتماع ثمار الأزمنة في زمن واحد فيها.

[تاريخ بغداد ١/١١٩]

— ٩ —

أعايَنْتَ في طولٍ من الأرض والعــرض كبــغداد دارًا إنها جنــةُ الأرضِ

صفا العيش في بغداد واخضر عوده وعود سواه غير صافٍ ولا غــضٌ

تــطــول بهــا الأعمــارُ إن غذاءها مَرِيء وبعضُ الأرض أمرءُ من بعــض

[أبو القاسم الشاعر، الوراق، تاريخ بغداد، ١/ ٥٢]

– ١٠ –

دع عنك "روما" و "آثينا" وما حَـوَتَـا ... كُلُّ اليواقيتِ في بغداد والتـوَمِ
دار الشرائع "رومـا" كلما ذُكرت ... دار السـلام لها أَلقت يـد السَّلَـم
ما ضارعتها بيانـاً عنـد ملـتـأم ... ولا حكـتها قـضاءً عند مختصـم
ولا احتـوت في طراز من قياصرها ... على "رشيـد" و "مأمـون" و "معتصـم"
من الذين إذا سـارت ركائبـهم ... تصرفـوا بحدود الأرض والتُّخُـم
يطـأطـيء العلماء الـهـامَ إن نبـسوا ... من هيبـة العلـم لا من هيبـة الحُكُـم

[أحمد شوقي]

– ١١ –

وفـي أرضِ بغـدادَ هـواءٌ هو المُنَى ... وعيـشٌ هو السلـوى وماءٌ هو الخمـرُ
أأنسـى زمان الكَـرْخِ والكـرخُ معرسٌ ... وتذهـب عـن ذكـرى الرصافـة والجـسـرُ

[الشيخ محمد رضا الشبيبي]

– ١٢ –

بـدت خـودًا لـهـا الأغـصانُ شَـعْـر ... ودجلـة ريـقـها والسـفـح ثـغـرُ
على بغـداد – ما بقـيت – سـلام ... يضوع كما ذكـا للـورد نَـشْـرُ
نزلـت فمـا رأيـت أبـر منـها ... وضيـف كـريمـة بـرٌ يـبر
كـريمـة سـادة عَـرَّقـن فيـها ... عـروقٌ من بنـي عدنـان نُـضْرُ
كـفى العـبـاس ما أبقـت بنـوه ... فمـا يربـو عـلى بغـداد مِـصْرُ

[محمد مهدي الجواهري]

— ١٣ —

ضاهت الشمس ولكن شأنها ... كان أعلى من عُلى الشمس مكانا
يا لها جوهرة شفت سنا ... من نواحيها وراعت لمحانا
أبدًا تُبْصرُها فاتنة ... يَهْرَمُ الدهرُ وتعلو عنفوانا
ورثت ما أثلته طيبةٌ ... ودمشق وأجدَّته زيَّانا
رَحِمُ الإسلام من أوشاجها ... عطفت بعضاً على بعض حنانا
بأبي بغداد بل بي وأنا ... وأبي قلّ لبغداد فدانا

[محمد بهجت الأثري]

— ١٤ —

في هوى بابل وحُب النواسي ... جئت أسري على هدى إحساسي
أملأُ العين من مباهج بغدا ... د وأسعى إلى حمى العباس
إيه بغدادُ والليالي كتابٌ ... ضم أفراحنا وضم المآسي
يقبس القابسون منك سنا العلْـ ... ـم فتعطيهم بلا مقياس
وتديرين في الوجود منارًا ... ثابت الركن مستقر الأواسي

[أحمد رامي]

— ١٥ —

مُدِّي بساطك واملئي أكوابي ... وانسي العتاب فقد نسيت عتابي
عيناك يا بغداد منذ طفولتي ... شمسان في أهدابي
بغدادُ عشت الحسن في ألوانه ... لكن حسنك لم يكن بحسابي
ماذا سأكتب عنك يا فيروزتي ... وهواك لا يكفيه ألفُ كتابِ
بغداد يا هزج الخلاخل والحلى ... يا مخزن الأضواءِ والأطيابِ

[نزار قباني]

حين أقدم الباحث على الكتابة في هذا الموضوع، أدرك بعد حين أنه شيء أشبه بمحاولة حبس الريح في عباءة، أو إفراغ البحر في كأس؛ فهو واسع متنوع، ذو مسالك متباينة، واتجاهات مختلفة، ولهذا أسبابه الموضوعية والمنهجية، فما كُتب عن بغداد كثير، وكثير جدًّا؛ إذ كانت محط عناية المؤرخين، والبلدانيين، والمفسرين، والفقهاء، والتراجمة، والرواة، أما الشعر فقد نال القدح المعلى من اهتمام الباحثين، فأفردوا كل قرن مر عليها بكتاب، وخصوا كل اتجاه شعري فيها بكتاب، وحظى كل شاعر من شعرائها بكتاب. أستغفر الله، ماذا أقول؟ فلقد حظي كل وجه من تلك الوجوه بكتب مختلفة المناهج، متباعدة المشارب، ولا نغفل في هذه اللمحة تلك الأسر التي من الممكن تسميتها بالأسر [الراعية] كآل وهب، وآل المنجم، وآل المدبّر، وآل ثوابة وغيرهم، فقد احتضنوا الشعراء والناثرين، والتراجمة، وأسبغوا عليهم من العون والتكريم ما مكنهم من مواصلة إبداعهم والاستمرار في مشاريعهم الأدبية أو الفكرية.

فماذا يأخذ الإنسان بعد ذلك، وماذا يدع؟ وقد أمدت بغداد نفسها أولئك الدارسين بتلك المادة المتنوعة، فتاريخها المعرق، وجذورها الضاربة في عمق التاريخ، وكثرة الأعراق التي سكنتها، وتجاور الأديان واللغات فيها، بالإضافة إلى ازدهار الحركة الفكرية والأدبية فيها، أقول كانت بغداد هي النور الذي فاضت عنه الأنوار جميعها، وجاء أولئك الأفاضل من الدارسين يقبسون شيئًا من ذلك النور، فشيء للمدينة وبنائها، وآخر لتاريخها، ونقطة نور لمساجدها، ومدارسها ومجالسها وديارتها، ونقطة ثانية للفلسفة والحكمة وعلوم الأوائل، وثالثة للترجمة وما قدمته من أيادٍ بيضاء لتلاقح الثقافات، ورابعة للتصوف الذي ازدهر في جنباتها، وأبدع أهله من عميق شعرهم، وفاخر نثرهم ما جعله مدرسة قائمة بنفسه بل مدارس تمتح من معين واحد، وتفترق بها السبل بعد هذا، أما السيل الدافق فقد كان الأدب بشعره ونثره وتنويعاته المختلفة، فنحن فيه بين اصطراع للمذاهب والمقولات، وتجاذب القديم والجديد، وتفاوت التصوير والتشكيل كل يفهمه بشكله، ويقدمه بصورة يقتنع بها ويرتضيها[1].

العواصم الثقافية العربية وحركة الشعر – ١٩٤

أمواج من الأفكار، والتيارات، والإبداع، والمصنفات توالت على تلك التربة، وهي واقفة في مكانها تنظر، وتنتظر، أمّا ما مَر عليها من محن وأحداث جسام فله خبر آخر طويل ليس هذا موضعه، وأعود فأسأل ماذا يترك الباحث وماذا يدع، وهو في خضم هذا كله؟

إن ما لا يدرك كله لا يترك جُلّه، هذا ما جرى على الألسنة، وتداولته الأقلام، ونراه قريبًا مما نحن فيه، ويسنده ويوقيه ما جاء في أمثال العرب قولها : "الخيل ميامين"، ويضرب "مثلاً للشيء تحمده من أي جهة جئته"[٢]، وعلى هذا فسنقف عند المحاور الكبرى التي تجلي هذا الموضوع سواء من حيث المؤثرات المحلية والوافدة، أم من جهة الظواهر والاتجاهات مكتفين بالحسوة النافعة، واللمحة الدالة، والإشارة التي توجه إلى الموضوع، وتعمق جنباته.

– ٢ –

كان بناء مدينة جديدة بالنسبة للمنصور ضرورة سياسية وعسكرية وحضارية، ومنذ أن كان هذا البناء فكرة في ذهن المنصور ألحت عليه قضية (عالمية) هذه المدينة التي سيقوم ببنائها، فأما أنه ضرورة سياسية؛ فقد أراد الابتعاد عن الحواضر الأخرى، كالبصرة والكوفة وواسط، ودمشق بسبب عدم استقرار ولائها للحكم العباسي الجديد، كما أنه أراد النأي بجيشه عنها خشية تأثر الجيش بالأفكار المضادة التي كانت تتحرك في تلك الحواضر[٣]، وأما الضرورة الحضارية فتتمثل في رغبته الصادقة في بناء مدينة تضم الأعراق المختلفة بلغاتها، وثقافاتها تلك التي انضوت تحت مظلة الخلافة العباسية الجديدة، وإذا علمنا من طرف آخر أن المنصور هو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية[٤] أدركنا كم كانت تلك الضرورات تلح عليه وتدعوه إلى جعلها حقيقة على الأرض.

إذن أراد للمدينة الجديدة من التفرد والتميز ما تختلف به عن الحواضر السابقة سواء من حيث الموقع، أو البناء؛ ولذلك راح يبحث ويكرر البحث[٥]، ويسأل ويكثر السؤال[٦]، ولم يكن المنجمون ببعيدين عن ذلك البحث والسؤال فقد أدلوا بدلوهم؛

إذ استشار منهم نوبخت، وما شاء الله بن سارية، وإبراهيم بن محمد الفزاري الطبري[٧]، وليس هذا بغريب على المنصور الذي قرب المنجمين، وأشركهم في أموره[٨]، وكانت له مشاركة فاعلة في حركة الترجمة كما سنرى.

والمهم في كل ما تقدم هو أن هذا الأمر العظيم قد استوفى شرائطه، ووصل إلى منتهاه، وقر الرأي على تلك البقعة كي تكون العاصمة الجديدة المنتظرة، وهنا يبزغ ما قررناه سابقًا من فكرة [العالمية] التي أرادها المنصور صفة لمدينته، فهل هناك خصائص لتلك [العالمية] اختصت بها بغداد[٩]؟ لقد تمكن الباحث من رصد مجموعة من تلك الخصائص تفضي الواحدة منها إلى الأخرى، أهلت تلك المدينة لتكون مدينة عالمية.

وأول هذه الخصائص هو الموقع الذي بنيت فيه المدينة؛ إذ يشير المؤرخون إلى أنه "في هذه المنطقة اتخذت معظم الدول عواصمها، فكانت أوبيس عاصمة الأكاديين، وبابل مقر حكم البابليين والميديين والإسكندر، والمدائن مقام السلوقيين والفرس والساسانيين"[١٠]، وقد "أثبت البحث الحديث وجود مدينة قديمة في موضع بغداد أثبته المكتشف الإنجليزي السير هنري رولنسون سنة ١٨٤٨م، وظهر اسم بختنصر الثاني على أحجار هذه المدينة، وقامت في هذا المكان أيضًا مدينة تشبه في تسميتها بغداد"[١١]، كما إن اسمها كان موجودًا من عهد حمورابي[١٢]، ويقول الخطيب : "كانت بغداد في أيام مملكة العجم قرية يجتمع فيها رأس كل سنة التجار، ويقوم بها للفرس سوق عظيمة .. وتأتيها تجار مدائن كسرى وتجار السواد"[١٣]، ويضيف أحد الباحثين أن تلك القرية فيها "دير عتيق للنساطرة، وعدد من الأديرة، وبعض الأسواق لبعض القرى السريانية هناك"[١٤]، أقول، هل دار في خَلَد المنصور وهو يستقر على ذلك الموضع أنه سيرث تلك الحضارات السالفة كلها[١٥]، وأن شأوا مدينته سيبلغ تلك المدن السابقة عليها؟ ليس بين أيدينا نص صريح يفيد بذلك، ولكن للعوامل النفسية أثرها في تكوين القرار وقد أدت دورها.

وثاني تلك الخصائص هم العمال والمهندسون الذين جمعهم المنصور للمشاركة في البناء فقد "أحضر الفعلة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين وغيرهم؛ فأجرى عليهم الأرزاق، وكتب إلى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئًا من أمر البناء، ولم يبتدئ في البناء حتى تكامل بحضرته من أهل المهن والصناعات ألوف كثيرة"[١٦]، ويضيف ياقوت : "ووجه المنصور في حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط فأُحضِروا"[١٧]، ويشير اليعقوبي إلى أن بغداد "عمل فيها كل ما يعمل في بلد من البلدان؛ لأن حذّاق أهل الصناعات انتقلوا إليها من كل بلد، وأتوها من كل أفق، وتفرغوا إليها من الأداني والأقاصي"[١٨]، ويتبين مما سبق أن أولئك العاملين بمختلف طبقاتهم ومهنهم الذين احتشدوا في بقعة واحدة كانوا مختلفي البلدان، واللغات، والأديان، ويقف في مقدمتهم أولئك المنجمون الذين أشرنا إليهم فيما سبق، فهم الذين هندسوا المدينة؛ لأنهم أصحاب حساب[١٩] على حد قول اليعقوبي، ويرجح بعد هذا أن ذلك الحشد الكبير قد استقروا مع أهليهم في بغداد، فشكلوا ذلك التنوع السكاني الفريد الذي تميزت به، وهو الذي تعمق وغزر فيما بعد.

وثالث تلك الخصائص هو أبواب المدينة التي جُعلت في الأسوار وعددها ثمانية أبواب، فقد نُقل سبعة منها من مناطق مختلفة كما يذكر الخطيب قائلاً : "نقل أبو جعفر الأبواب من واسط، وهي أبواب الحجاج، وأن الحجاج وجدها على مدينة كان بناها سليمان بن داود عليهما السلام بإزاء واسط، كانت تعرف بزنْدوَرْد، وكانت خمسة، وأقام على باب خراسان بابًا جيء به من الشام من عمل الفراعنة، وعلى باب الكوفة الخارج بابًا جيء به من الكوفة من عمل خالد القسري، وعمل هو لباب الشام بابًا فهو أضعفها"[٢٠]، فهنا نلقى واسط، وزندورد، والشام، والفراعنة، والكوفة، فهل يشير هذا إلى أن هذه المدينة ستحوي فضائل تلك المدن، وتربو عليها، مع إشارة خاصة إلى الفراعنة الذين عُرف عنهم الخبرة الكبيرة في البناء وأسراره. لعل ذلك كله كان وراء اختيار الأبواب من تلك المدن لأنها ستحافظ على تلك الأبواب من جهة، وتفتح صدرها للقادمين عليها من شتى أرجاء الأرض من جهة أخرى.

ورابع تلك الخصائص هو تخطيط المدينة، وإنزال الناس فيها، فقد جاء الأمر هو الآخر مختلفًا عما رأيناه في المدن قبلها، ويشير إلى تلك (العالمية) بأصابع قوية؛ إذ من المعلوم أن : "القبيلة هي الأساس الإسكاني في خطط المدن الأولى كالبصرة والكوفة والفسطاط حتى عهد مروان بن محمد لا بسبب الإصرار على القبيلة، ولكن لأن تكوين السكان النازحين من الجزيرة كان قبليًّا، ولأن التكوين التعبوي كان قبليًّا كذلك، وسجلات العطاء كانت منظمة على الأساس نفسه"[٢١]، بيدَ أن ذلك الأساس قد تغير في مدينة المنصور فلم "ينظمها على أساس قبلي، وإنما أقام تنظيمه على أساس الأفراد أو المدن التي جاءت منها الجماعات التي أوطنها فيها"[٢٢]، فهذا الأساس الجديد "تعبير عما وصل إليه التطور في آخر العصر الأموي من ضعف الروابط القبلية، وازدياد مكانة الأفراد، وبروز أهمية الروابط المدنية"[٢٣]، إن هذا الوضع المتميز عما سبق يشير بلا ريب إلى أن هناك مرحلة جديدة قد بدأت وقد لامست هذه المرحلة مدن المسلمين وعقلياتهم معًا، مما آذن بتغيير جذري في الحيوات السياسية والاجتماعية والثقافية لهم، وهو ما سنراه بينًّا في الشعر خصوصًا، والفكر عمومًا.

وخامس تلك الخصائص وآخرها هو التجمع السكاني الذي سكن بغداد سواء في بدايات عمارتها أو في أثناء تطورها وازدهارها؛ إذ تلقانا أخلاط متباعدة من الأجناس كالعرب والفرس والترك والهنود واليونانيين[٢٤]، بالإضافة إلى أهل الذمة كالنصارى واليهود والمجوس والصابئة، أما الرقيق والعامة فقد كثروا كثرة لافتة للنظر وهم من أجناس مختلفة أيضًا، وقاموا بأعباء الأعمال الدُنيا التي تحتاج إليها المدن عادة.

إن هذا التنوع العجـيب للسكان ظل منضويًّا تحت وحدة قوية ذات شقين هي : الإسلام والعربية، فبينما كان العرب والفرس والأتراك مسلمين كما هو معروف، ظل أهـل الذمة على دينهم ينعـمون بذلك التسامـح الذي أشاعه الإسلام عليهم؛

إذ ظلوا محتفظين بكنائسهم ودور عباداتهم وأعيادهم ومواسمهم، غير أن هذا الجمع الحاشد كله اتخذ من العربية لغة له لدوافع مختلفة، وظلت العربية هي اللغة السائدة في تلك الحاضرة الكبيرة، وكان لهذا الأمر وجهه الحضاري أيضًا؛ إذ شارك الجميع في الحركة الثقافية التي عملوا على ازدهارها سواء بالإبداع، أو التأليف، أو بالترجمة، ومن هنا نفـــهم سر ذلك السيل المتدفق من المصنفات في العلوم الإسلامية المتنوعة؛ إذ اشترك الكل فيه بلا نظر إلى جنس أو دين، مما سنفصل الحديث عنه في فقرة لاحقة.

هذه هي الخصائص التي جعلت من تلك البقعة مدينة (عالمية) وفق الشروط الموضوعية للعالمية، وقد آن لها بعد ذلك كله : الموقع، والإدارة الحازمة، وإقبال الناس عليها بمختلف الأجناس والديانات، والثراء الاقتصادي الذي بلغته، أقول بعد ذلك كله آن لها أن تضطلع بمسئوليتها تجاه الإسلام والعربية، وقد فعلت من خلال تلك الحركة الثقافية النادرة، وذلك المناخ العلمي الذي شاع في جنباتها، وهو ما هيأ للشعر موضعه الملائم كي يزدهر هو الآخر، وهو ما سنراه الآن.

- ٣ -

أفاض الدارسون القدماء منهم والمحدثون في الحديث عن المكانة العلمية السامقة التي بلغتها بغداد خلال مدة قصيرة من بنائها، ثم استمرت هذه المكانة في الارتفاع حتى بلغت أوجها في زمن الرشيد والمأمون، وبدأ هذا الوهج العلمي يخفت رويدًا رويدًا، استجابة لعوامل التغير الحضاري الذي يستمد مقوماته من السياسة والمجتمع والسكان على حد سواء، ومن الخارج أيضًا، غير أن هذا الخفوت احتاج إلى وقت طويل كي يبلغ مداه، فعوامل الدفع القوية المثمرة هي الأخرى كانت تفعل فعلها في استمرار ذلك الزخم العلمي، وتمد قنديل الحضارة بقطرات متواصلة من ذلك الزيت المقدس ليظل القنديل متوهجًا لقرون أخرى، ولذلك ظلت بغداد منذ بنائها سنة ١٤٥ للهجرة وحتى سقوطها بيد التتار سنة ٦٥٦ للهجرة محط نظر العلماء، ومهوى أفئدتهم.

ولن نحيل درسنا هذا إلى مسرد نسوق فيه أسماء العلماء ومصنفاتهم فهذا يخرجنا عما نحن فيه، كما إن دراسات كثيرة سبقتنا اضطلعت به، وجعلته همّها ووكدها؛ ولذلك سنحاول أن نرسم لوحة متكاملة للحركة العلمية التي شهدتها بغداد التي أثرت بدورها تأثيرًا جوهريًّا على الشعر والشعراء معًا.

نستطيع القول باطمئنان إن ما اصطُلح عليه بـــ (العلوم النقلية) و (العلوم العقلية)[٢٥] قد شهدتا ازدهارًا لا نظير له في بغداد، ولعل قضية الوراثة التي أشرنا إليها فيما سبق قد فعلت فعلها في هذا الأمر، ويضاف إليه أن ما تراكم في البصرة والكوفة من خبرات علمية، قد انتقل بدوره إلى بغداد على هيئة أولئك العلماء الذين وفدوا إليها منهما، مع عدد جم آخر من العلماء الذين جاءوا واستوطنوا فيها من مختلف بقاع العالم الإسلامي آنذاك.

وتلقانا صنوف من تلك العلوم النقلية التي يقف في مقدمتها القرآن الكريم وعلومه الغزيرة المباركة فقد أفاد علماء من بغداد من السابقين وأضافوا إليه من إبداعهم وتنظيمهم الشيء الكثير، وممن يذكر هنا أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد التميمي إمام القراء ببغداد وكتابه (السبعة)، والإمام الطبري صاحب التفسير المشهور وغيرهما كثير، ويأتي الحديث الشريف ومباحثه الكثيرة بعد القرآن الكريم، وقد أولى البغداديون اهتمامًا خاصًّا بالحديث حتى عدّت بغداد دارًا للحديث، وفي هذا يقول ابن علية : "ما رأيت قومًا أحسن رغبة، ولا أعقل لطلب الحديث من أهل بغداد"[٢٦]، ويعلق الخطيب قائلاً : "وأهل بغداد موصوفون بحسن المعرفة والتثـبت في أخذ الحديث وآدابه وشدة الـورع في روايته، اشتهر ذلك عنهم وعرفوا به"[٢٧]، وَيَـرِد هنا الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله صاحب (المسند)، ومحمد بن إسحاق بن يسار وسواهما.

أما الفقه فقد كان ذا سوق رائجة في بغداد، فهو موضع حلال وحرام المسلمين، فلا عجب أن يأخذ مكانه اللائق به، وتتشعب مسالكه في ظل ذلك الازدهـار العام الذي شمـل المناخ العلمي برمته، فنرى أبا حنيفة النعمان وتلميذه

أبا يوسف، يعقوب بن إبراهيم يأخذان بالرأي، وينظران لمدرسة فكرية بارزة المعالم[٢٨]، بينما يقف داود بن علي الأصبهاني الملقب بالظاهري في الجهة الأخرى من حيث رفض القياس والاكتفاء بالقرآن والحديث لاستنباط الأحكام[٢٩].

ويلتفت العلماء إلى التاريخ فيقبلون ما وصل إليهم من المغازي والأنساب قبولاً حسناً، ويعمدون إلى التنوع داخل التأليف فيه، فمن كتب لتواريخ البلدان، إلى أخرى للتاريخ الخاص، إلى ثالثة للتاريخ العام وهكذا، ويتصدى الإمام أبو جعفر الطبري لتأليف كتابه الكبير (تاريخ الرسل والملوك)، ويتابعه أبو الحسن المسعودي فيؤلف كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، بالإضافة إلى كتب أخرى[٣٠] عن بغداد وعمارتها وتاريخها كما أشرنا سابقًا.

وصار علم الكلام أداة هامة بيد الفرق الإسلامية المتجادلة فيما بينها من جهة، والمتناظرة مع أتباع الأديان والملل الأخرى من جهة ثانية، ومن الضروري الإشارة هنا إلى أن الفرق الإسلامية قد عملت على إذكاء روح الجدل، وبثت في المجتمع روحًا جديدة لا تقنع بظاهر النصوص بل تتغلغل فيها تغلغلاً يكاد يبعدها عن القصد، حتى رأينا من يصف علماء الكلام بأنهم زنادقة، وعمل أولئك على تبيان أحقية فرقهم بالحجة المنطقية والأدلة العقلية، ويقف المعتزلة في المقدمة في هذا المضمار مع فرق لا تقل أهمية عنها كالأشاعرة، والشيعة، والخوارج وغيرهم، ومن أشهر المتكلمين في بغداد بشر بن المعتمر، وأبو الهذيل العلاف، وثمامة بن الأشرس، أما الجاحظ فهو أشهر من أن يذكر غير أن له فضيلة أخرى، وهي نقله الكثير من جدال المتكلمين وشعرهم ونثرهم في ثنايا كتبه، وخصوصًا المعتزلة بعد أن فقدت كتبهم لأسباب كثيرة.

وتقترب الفلسفة من علم الكلام كأنهما يعملان في حيز متقارب، ومن هنا نفهم قولة الجاحظ وهي : "ولا يكون المتكلم جامعًا لأقطار الكلام متمكنًا في الصناعة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة[٣١]، فقد زاد الاهتمام بها وخصوصًا بعد ترجمة الكثير من أصولها إلى العربية – كما سنرى بعد قليل – واعتنى بها بعض خلفاء بني العباس، ووزرائهم

وقادتهم، وأسبغوا على المشتغلين بمباحثها كثيرًا من الرعاية والاهتمام، ونجد مصداق هذا في الفيلسوف الكندي الذي كان "عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم"[٣٢]،بينما كان للفارابي منزلة كبيرة في بغداد إذ كان عليه معول علمائها في الفلسفة[٣٣]، وقد أشاع النظر في الفلسفة عمقًا في النظر، وتأملاً في الظواهر، واهتمامًا بذلك [الآخر] الوافد بحيث أصبح جزءًا من النسيج الفكري العام.

ويلاحظ بعض الأمور التالية التي تعزز بعض ما سبقت الإشارة إليه :

١ – إن الدولة نفسها ممثلة بالخلفاء[٣٤] وأولياء العهود هم الذين رعوا تلك الحركة، وأنفقوا عليها من المال والجهد الشيء الكثير.

٢ – قام الكثير من الوزراء[٣٥] والأسر العلمية[٣٦] والأفراد[٣٧] برعاية حركة الترجمـــة، ومد يد العون للتراجمـــة كي يقوموا بأعمالهـــم بحرية وأمان، مما يجعلنا نقول باطمئنان إن ثقافة جديدة عمت في مجتمع بغداد هي ثقافة الترجمة بحيث لم تعد مقتـــصرة على أولي الأمر وحدهم، بل تعدتهم إلى أولئك الذين ذكرناهم، ولا ننسى هنا طوائف المثقفين الذين تفاعلوا مع ثمار تلك الحركة، وأصبحت تلك الثمار جزءًا من نسيجهم الفكري والثقافي[٣٨]، وما يهمنا منهم الشعراء، فقد أخذوا منها بنصيب وافر كما سنرى.

٣ – من الواضح أن الذين قاموا بمهمة الترجمة كانوا في الأغلب غير مسلمين، فهم إما نصارى[٣٩] وكانوا جل التراجمة، أو طوائف أخرى[٤٠] لاعتبارات كثيرة[٤١]، وهذا يشير بقوة إلى ذلك الانفتاح الثقافي، والتسامح الديني الذي تمـــيزت به بغداد بحيث لم يُنـــظر إلى شيء من دين أو عرق، أو لون، أقول لم يُنظر إلى شيء من ذلك سوى العمل وإتقانه.

٤ – أثبت الفكر العربي أنه قادر على استيعاب ما يأتيه من الخارج، والإفادة منه، والبناء فوقه بناءً يمثل الشخصية العربية الإسلامية بلا تخاذل أمام ذلك الوافد، فحين نُقلت كتب أرسطو إلى العربية أفاد منها علماء الكلام، وطوعوا مقدماتها ونتائجها لتتلاءم مع فكرهم الإسلامي، فاتخذوا من ذلك المنطق

وسيلة عقلية لإثبات الوحدانية مثلاً، أو إثبات نبوة رسول الله ﷺ، أو إعجاز القرآن مثلاً، فهم لم يقــفوا عند التخوم الأرسطية فحــسب بل تجاوزوها إلى ما هو أبعد خدمة لعقائدهم ومقالاتهم.

٥ – خرجت اللغة العربية من ذلك الامتحان العسير[٤٢] منتصرة أيما انتصار، فقد تمكنت من استيعاب ذلك الوافد الجديد ومصطلحاته، بعد مراحل من التجويد مرت بها، وكأن اللاحق من التراجمة كان يفيد من سابقيه فيعمد إلى الترجمة الثانية أو الثالثة ولكنه في الحالتين : الثانية والثالثة مزود بأدوات جديدة ومصطلح جديد[٤٣]، بل عقل جديد مما أتاح لتلك المترجمات ذلك الانتشار الذي ألمحنا إليه فيما سبق.

وبناء على ما تقدم فقد قطعت حركة الترجمة الشوط إلى نهايته، وراحت تنقل من ثمار اللغات الفارسية، والهندية، واليونانية، والسريانية الشيء الكثير[٤٤]، وتنوعت المعارف والعلوم التي قامت بنقلها فنراها تتنقل بين النجوم، والفلك، والطب والهندسة، والصيدلة، والكيمياء، والفلسفة، والمنطق، والرياضيات، والجغرافيا، والموسيقى، وسير الملوك[٤٥] وأخبارهم، حتى نكاد نبدي استغرابنا مع دكتور شوقي ضيف الذي قال : "وكل هذه السيول من الترجمة كانت تجري معها سيول أخرى من تراث اليونان والفرس والهند، حتى ليكاد الإنسان يظن أنه لم يبق شيء من هذا التراث لم ينقل إلى العربية"[٤٦]، وقد تسرب هذا التراث الغني إلى الحضارة العربية بلطف وتمهل، فأدى مع عوامل أخرى إلى أن تسلك سبيلها إلى الخصوبة والعمق، وتصطنع طرقًا ومشارب متنوعة، وتصطبغ بصبغة عقلانية في التفكير والتأليف سواء عن طريق المادة أم المنهج معًا.

ولا غنى لنا بعد ما رأيناه من ازدهار الحركة العلمية في بغداد أن نتوقف قليلاً عند الأسباب التي أدت إلى ذلك الازدهار، ومعلوم أن كل سبب منها محتاج إلى فصل مستقل، ولكنها اللمحة التي أردناها استكمالاً لمتطلبات المنهج.

ولا شك أن الرعاية الحقيقية للخلفاء ومن يلوذ بهم من وزراء وقادة كانت من الأسباب المهمة في ذلك الازدهار، يضاف إليه الانتعاش الاقتصادي الواضح الذي شهدته بغداد مما جعلها قبلة القصاد من جهة، ومكنها من الإنفاق بسخاء على العلم والعلماء من جهة أخرى، ولهذا توافد عليها العلماء من أقطار الأرض، فبعضهم يتخذها وطنًا، وبعضهم يقيم فيها مدة ويرحل، وقد أدى اجتماع أولئك العلماء في بقعة واحدة إلى إذكاء روح التنافس فيما بينهم مما انعكس بدوره على الإنتاج العلمي لهم، غزارة وتجويدًا، وكان يسند ذلك كله عشرات من دور العلم كالمساجد، والمدارس، والمجالس الخاصة التي استقبلت أولئك العلماء وطلابهم فشكلوا ذلك الجانب المتحرك الفاعل في تلك الحركة، كما شارك أهل الذمة مشاركة حقيقية في تلك الحركة لا من حيث الترجمة وحدها كما رأينا، بل من حيث التأليف، وإشاعة أنماط من التفكير والسلوك زادت المجتمع رقيًّا، ولا يمكن إغفال التدوين المنظم الذي ساعد على رواج الكتاب يساعده في هذا رخص الورق، وانتشار دكاكين الوراقين التي كانت تقوم بعملية نسخ الكتب وبيعها، ومن المعلوم أن التدوين قد نقل المجتمع برمته نقلة جوهرية من عقلية الرواية والمشافهة إلى عقلية التأمل والنظر في الكتاب، وهذا – بلا شك – من شرائط المدينة العالمية وخصائصها الكبرى.

– ٤ –

لم يكن ما سبق سوى منفذ نريد الدخول منه إلى عالم الشعر، ونحن موقنون أن حياة الشعر في بغداد لا يمكن أن تفهم فهمًا خصبًا نافذًا بمعزل عن المناخ الفكري الذي نشأت وترعرعت فيه؛ فهي حلقة في السلسلة، ووجه من وجوه ذلك المناخ، تتأثر به، وتؤثر فيه، ولذلك سنجد أن ما قررناه هناك سوف نسمع صداه هنا، فإن كنا قد أشرنا إلى الغزارة، والازدهار، والتنوع، والخصوبة وما إليها؛ فسنلقى هذا كله في الشـــعر واتجاهاته المختلفة، ومشاربه المتباينة، وإذا كنا قد ألمحنا هناك إلى أثر الحاضرة، والثقافة الوافدة، وأهل الملل والأديان، والفرق،

سنجد هذا كله في الشعر أيضًا، وإذا كنا قد مررنا على تشابك الأعراق، وتنافس الألسنة وافتراقها، وتقارب الحضارات هناك؛ فسنرى هذا في لغة الشعر، وصوره، وأخيلته، وشكله، ووظيفته.

ولذلك كله سندرس الشعر ببغداد في هذه المرحلة وفق محورين كبيرين ينضوي تحتهما موضوعات متنوعة بحيث يكون المحور الأول للظواهر، ويتكفل الثاني بالاتجاهات والفنون.

وأول ما نقف عنده من الظواهر التي واجهتنا بقوة هي كثرة الشعراء كثرة لافتة للنظر، وغزارة الشعر الذي خلفوه، فنظرة سريعة في كتب التراجم مثل طبقات الشعراء لابن المعتز، والأغاني للأصفهاني، ويتيمة الدهر للثعالبي، ودمية القصر للباخرزي، وخريدة القصر للعماد الأصفهاني، وغيرها، تؤيد ما ذهبنا إليه؛ إذ تفرد هذه الكتب للعراق عمومًا، ولبغداد خصوصًا صفحات كثيرة، ويقال الشيء نفسه عما يسمى بكتب [المفاتيح] مثل تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، ودكتور عمر فروخ، وتاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين وغيرها. فهذه الأخرى تفسح صدر صفحاتها لشعراء بغداد حتى أن سزكين يقدم أكثر من مائة شاعر لم تتجاوز تواريخ وفياتهم أواخر القرن الثالث الهجري[٤٧]، يضاف إلى ذلك رصده لأفراد بعض الأسر الشهيرة[٤٨] ممن نظموا الشعر كآل ابن صبيح، وآل المهلبي، وآل أبي أمية، وآل البرمكي، وآل النوبختي، وآل اليزيدي، وآل طاهر بن الحسين، وآل حمدون وغيرهم، فإذا ضممنا ما أحصاه من الخلفاء الشعراء إلى قائمة العماد في الخريدة[٤٩] لتوفر لنا أكثر من عشرين خليفة عباسي كانوا يقولون الشعر ولبعضهم ديوان مستقل. وعند ذاك سندرك كم حظيت الجمهرة من الشعراء بالعناية في ظل أولئك الخلفاء والأسر الأدبية التي ترعى الشعر وتعين عليه[٥٠].

ويمكننا تقسيم أولئك الشعراء طوائف، فمنهم من ولد وعاش ومات ببغداد، وآخرون هبطوا بغداد واتقروا بها واتخذوها وطنًا جديدًا، ومنهم من وفد إلى بغداد وعاش فيها مرحلة من حياته ثم تركها إلى مكان آخر، وقد أغنت تلك الموجات

الكبيرة من الشعراء الحياة الشعرية في بغداد وأمدتها بفيض من الخصوبة والتجدد وجعلت بغداد تقف في طليعة البيئات الشعرية في ذلك الوقت من حيث الكثرة من جهة، أم من حيث التنوع من جهة أخرى.

ولعل الذي تقدم هو الذي سيدعونا إلى القول – وهي الظاهرة الثانية – إن هذا العدد الكبير من الشعراء كانوا ذوي اتجاهات شعرية متباينة، ومشارب مختلفة، بعضها جاء معهم من أمصارهم، وأخرى تولدت في بغداد بعد أن أخذ الاستقرار مداه، وتشكل السمت الحضاري لبغداد بمرور الزمن؛ إذ لما استحصد الشعر باتجاهاته المختلفة في آخر عهد بني أمية جاءت بغداد فحصدت ذلك كله، وحفظته بين أضلاعها، ورعته بين جنباتها، وأضافت إليه ما نسميه بالمزاج الشعري البغدادي الذي تضافرت عدة عوامل على تشكله وازدهاره منها البيئة، والسكان، والثقافة، ولذلك رأينا بوضوح تجاور الاتجاهـــات الشعرية المختلفة في تلك المدينة ما بين مجدد مندفع فيه، وآخر تقليدي ينظر بقوة إلى الوراء، وثالث يأخذ من النصيبين بقدر معقول ويحاول أن يشق لنفسه طريقًا ثالثًا بينهما، ولعل الذي ساعد بقوة على ذلك التجاور المثمر هو أن بغداد مدينة [حديثة] بالقياس إلى الحواضر الإسلامية الأخرى كدمشق والبـــصرة والكوفة؛ فكانت وفق المفهوم أقدر على تقبل ما يفد إليها بلا أحكام سابقة، أو أفكار جاهزة؛ فتمكنت بذلك من استيعاب مختلف الاتجاهات وتركت التطور الحـــضاري يأخذ مداه، ويســـتوفي شروطه بحيث يبقى ما هو جدير بالبقاء فقط استنادًا إلى شرائط الحضارة وأحكامها فحسب.

ويقودنا هذا الأمر إلى الظاهرة الثالثة، ومن الممكن تسميتها بـــ [الظاهرة الحضارية] التي عمّت الشعر، ونشرت ظلالها عليه، فلم يكن للشعر بعد ما رأيناه سابقًا من [عالمية] المدينة التي يتفيأ ظلالها، والتغير الحضاري الذي يشمل مرافقها، وتشابك الأعراق واللغات فيها، أقول لم يكن له بعد هذا أن يقف بمعزل عن ذلك كله، وقد كان، فلقد انغمر الشعر يأخذ ما شاء له الأخذ من هذا التنوع الذي ألفاه

ميسورًا مبذولاً بين يديه، ووقع التفاعل الخلاق بين الشعر من جهة والحياة بمختلف ضروبها وألوانها من جهة أخرى، وأصبحنا نقرأ في الشعر أفكارًا جديدة، وفنونًا لا عهد للشعر العربي بها، وأكاد أقول أن روحًا جديدة سرت في الشعر جعلته يفيد من التراث الذي تقدمه ويضيف إليه من [حياة] المدينة الجديدة الشيء الكثير.

وخبر [الظاهرة الحضارية] خبر طويل، وهو ذو اتجاهين متعاكسين، أحدهما يضرب جذوره في التاريخ، والآخر يصعد باتجاه المدينة الجديدة ومظاهرها وقيمها المستحدثة؛ إذ لم ينس الشعراء البتة قضية [الوراثة] الثقافية، سواء البعيدة منها أم القريبة. ونريد بالبعيدة تلك الحضارات المتعاقبة التي مرت على تلك الأرض، أما القريبة فهي البصرة والكوفة التي انتقلت أضواؤهما وتراكمهما الثقافي إلى بغداد. أما الوراثة البعيدة فيعنينا منها هنا اللغة الآرامية التي كانت منتشرة في العراق "حتى زمن الملوك الساسانيين إلى جانب العربية حتى إذا دخل العراق في حوزة المسلمين بدأت هذه الآرامية تتضاءل ويضعف نفوذها"[٥١]، ومعلوم "أن الآرامية في العهود المسيحية عرفت بالسريانية ابتعادًا من لفظ الآرامية المقترن بالوثنية"[٥٢]، وقد وجدنا كلمات سريانية كثيرة تدخل الشعر وتصبح جزءًا منه، من ذلك قول إبراهيم بن إسحاق الموصلي :

فقال أزل بشين حين ودعني ... وقد لعمرك زلنا عنه بالشين

وأزل بشين سريانية معناها : امض بسلام[٥٣]، وقول أبي نواس :

بمعمودية[٥٤] الدير العتيق ... بمطرينيها[٥٥] بالجا تليق
بميلاد المسيح، بيوم دنح ... بباعوثا[٥٦]، بتأدية الحقوق
بمارت[٥٧] مريم، وبيوم فصح ... وبالقربان، والخمر العتيق[٥٨]

وقول الفضل بن العباس بن المأمون :

بدير مرمار إذ نحيي الصبوح به ... ونُعمل الكأس فيه بالعشيات
بين النواقيس[٥٩] والتقديس آونة ... وتارة بين عيدان ونايات[٦٠]

وقول عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع :

وشـــــاون رام - إذ مـــــــــر - فـــي الـشـعـانـين[٦١] قـتـلـــي

يـقـول لـي : كـيـف أصبـحـ ـت؟ كـيـف يـصبـح مـثـلـي

وغير هذا كثير[٦٢] مما يشير إلى امتزاج كثير من الألفاظ السريانية بالشعر العربي وانتشارها بين الشعراء.

وأردنا بالوراثة القريبة الكوفة والبصرة التي قدم كثير من شعرائهما وعلمائهما إلى بغداد وأقاموا فيها، وبثوا في الشعر والحياة معًا ما كانوا قد اعتادوا عليه هناك في الإقليمين حتى أننا نجد بعض الباحثين[٦٣] يذكر صراحة أن ما شاع في الشعر ببغداد من مجون وخلاعة إنما جاءه من الكوفة، وخصوصًا [عصبة المجان] الذين انتقلوا إلى بغداد وأشاعوا ما فيها من تلك القيم الشعرية والسلوكية على حد سواء، ولكن ما أصاب بغداد فيما بعد من استقرار سياسي وازدهار اقتصادي قد أضاف إلى الوافد الجديد روافد مختلفة مما نراه في المجالس والغناء والترف كما سنرى بعد قليل ولكننا نقف هنا عند الأثر الفارسي الذي شاركت البصرة والكوفة في نقله إلى بغداد، وأصبح بعد هذا جزءًا من النسيج الشعري بالإضافة إلى أثره الواسع في الحياة، فمعلوم أن البصرة كانت ملتقى كثير من الأجناس[٦٤]، وتشترك معها الكوفة[٦٥] أيضًا، ويبدو أن الفارسية كانت شائعة فيهما بدليل ما نقرؤه عند ابن رشيق في قوله : "وربما استعملت في بلد ألفاظ لا تستعمل كثيرًا في غيره، كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونوادر حكاياتهم"[٦٦]، ولعل ما ساعد على هذا أن كثيرًا من الشعراء كانوا من أصول غير عربية، فمن البديهي أن يفيدوا من لغاتهم من جهة، ومن التطور الحضاري الذي أصاب الأمصار العربية من جهة أخرى، ونجد هذه الظاهرة أيضًا عند بعض شعراء الكوفة الذين انتقلوا إلى بغداد كأبي دلامة، وعبد الله بن أيوب التيمي وحماد عجرد، ومطيع بن إياس وغيرهم[٦٧]، فكأن جملة من الأسباب قد تجمعت فجعلت من الألفاظ الفارسية[٦٨] تدخل هي الأخرى إلى النسيج الشعري، فمن ذلك ما نقرؤه في بيتي أبي نواس :

فقلت ونحن في وجل شديد رضينا من وصالك بالخسيس
باسفهر[٦٩] وناهيد[٧٠] وتير[٧١] وحق الماه والمهر الرئيس

ويقول أبو الينبغي في البرامكة :

إنما الدنيا كبيض عملوه نيمرش
فحشاه البرمكيون وقال الناس : خش[٧٢]

ويقول والبة بن الحباب :

قد قابلتنا الكئوس ودابرتنا النحوس
واليوم هُرمُزد روز قد عظمته المجوس[٧٣]

وغير هذا كثير، غير أنه من الضروري أن ننبه إلى أن العربية ظلت هي اللغة السائدة، وليست هذه الألفاظ غير العربية سوى آثار رقيقة أدى إليها ذلك التطور الحضاري الذي ألمعنا إليه.

ومما ينضوي تحت [الظاهرة الحضارية] تلك المظاهر الجزئية التي لمسناها بوضوح في الشعر مثل أثر الغناء، والترف، والمجالس المتنوعة، وأهل الذمة، بالإضافة إلى غلبة الاتجاه العقلي في بعض نواحي الشعر بسبب من المذاهب الفلسفية والكلامية التي أخذت طريقها بقوة إلى الحياة الثقافية ومنها إلى الشعر.

وقد أفاضت الدراسات التي سبقتنا في الحديث عن تلك المظاهر الجزئية، وسنحاول الإلمام بها بغية توضيح الصورة.

أما الترف فقد بلغ مداه من حيث التأنق في البناء، والملبس، والمأكل، وبدأت تنفق الأموال الطائلة لتحقيق ذلك، ولعل خير من لخص ذلك الترف في بغداد هو ابن خلدون حين قال : إن أعطية بني أمية كان أكثرها من الإبل، أما في عصر العباسيين فقد أصبحت الأعطية من أحمال المال وتخوت الثياب وأعداد الخيل بمراكبها[٧٤]؛ فإذا كانت حال الأعطيات كذلك فكيف كان يعيش من يمنح تلك الأعطيات[٧٥]؟ وراحت المصادر تصور لنا معيشة القوم الناعمة بما يطول شرحه، وقد أصاب الشعراء نصيبًا وافرًا من ذلك الترف بما كان يغدقه عليهم الخلفاء،

والوزراء، والقواد، ويقدم لنا كتاب "الأغاني" نماذج كثيرة من ذلك الإغداق؛ فالمتوكل يعطي مروان بن أبي الجنوب مائة ألف درهم لقصيدة[٧٦]، وكذلك يفعل الأمين مع غسان بن عبد الله التيمي[٧٧]، أما الرشيد فيعطي سلمًا الخاسر سبعين ألف درهم[٧٨]، وبدأت تنتشر ظاهرة فريدة هي عدّ أبيات القصيدة وإكرام شاعرها بألف درهم لكل بيت، صنع هذا كثير من الخلفاء ووزرائهم[٧٩]، ولا شك أن هذا الأمر قد شجع الشعراء والعلماء ومن أفاد منه، وأتاح لهم مناخًا ثقافيًّا مناسبًا يتقلبون فيه، ولكنه بالمقابل وسع هوة الخلاف بين الطبقة الحاكمة والمستفيدة منها، وبين سائر الشعب الذين عاشوا دون ذلك بكثير، وازداد حالهم سوءًا بعد الاضطرابات السياسية التي حدثت في بغداد وخصوصًا الفتنة بين الأمين والمأمون التي انتهت بقتل الأمين.

ولم يكن الغناء ببعيد عن ذلك الترف فهو وجه من وجوهه، يمت له بأسباب وثيقة؛ فقد شاع الغناء في بغداد شيوعًا واضحًا وكثر المغنون والعازفون، وتعددت مجالسه[٨٠] وألّفت فيه الكتب، وظهرت فيه معالم مدرستين : الأولى محافظة، والثانية مجددة، مما يشير إلى ثرائه، واهتمام الجمهرة من الناس به، ووصل الأمر إلى أبناء الخلفاء أنفسهم، وعلية القوم فأقبلوا "على تعلمه وإتقانه حتى لنراهم يصنعون فيه ألحانًا وأصواتًا تنسب إليهم"[٨١]، وما يعنينا من الغناء هو علاقته الحميمة بالشعر؛ إذ توثقت علاقة الشعراء بالمغنين، وكثيرًا ما كانوا يحضرون مجالس الغناء، وبدأوا ينظمون مقطوعات خاصة لكي تغنّى، وقد أثر هذا الأمر على الشعر نفسه من حيث جنوحه إلى السهولة والرقة، والميل إلى المقطعات وقصار القصائد، وطرق الموضوعات المحببة القريبة من النفوس كالغزل والوصف وما إليهما، ومما هو مستحسن في مجالس الغناء، فانتقل الشعر بسبب الغناء نقلة كبيرة لم نعهدها فيما سبق إذ فتح له أبوابًا جديدة، وتسربت إليه روح مختلفة، واتخذ أساليب وطرائق تتلاءم مع هذا المنحى الحضاري.

وبقى لنا أن نلم قليلاً بتلك الحياة العقلية التي كان الشعراء جزءًا أصيلاً فيها، وهي الحياة التي أصبحت سمة واضحة من سمات المناخ الثقافي ببغداد، وقد تهيأت لتلك الحياة روافد متنوعة أغنتها، منها الجدل والمناظرة بين الفرق الإسلامية، أو بينهم وبين أتباع الأديان الأخرى[٨٢]، ومنها تغلغل الثقافات الوافدة من فارسية وهندية ويونانية من خلال الترجمة، ومنها انتشار كتب الفلسفة وعلم الكلام في بيئات المثقفين كل يأخذ منها بالنصيب الذي يقدر عليه، وقد أفاد الشعراء من هذا الثراء العقلي، وانعكس بدوره في شعرهم[٨٣]، وطوعوه لأغراضهم الشعرية، ويسوق بعض الباحثين[٨٤] نماذج من أشعارهم وهي محملة بالأفكار والمعتقدات الوافدة، ولعل المعتزلة قد تقدموا غيرهم في هذا المضمار؛ إذ جاء شعرهم[٨٥] وهو محمل بالكثير من تلك الأفكار الوافدة، يسنده ذلك اللون العقلي من الحجاج الذي عُرفوا به، وهو الذي أفادوه من صلتهم الوثيقة بكتب الأوائل، فمن ذلك قول إبراهيم النظام[٨٦] :

توهمه طَرْفي فآلَمَ خدّه ... فصار مكان الوَهْم من نظري أثر
وصافَحَهُ قلبي فآلَمَ كفَّه ... فمن صفح قلبي أناملَه عقر
ومر بقلبي خاطرًا فجرحته ... ولم أر جسمًا قط يجرحه الفكْرُ
يمر فمن لين وحسن تعطف ... يقال به سُكْرٌ وليس به سكر

فهو يتغلغل في وصفه هذا المحبوب تغلغلاً نكاد نشعر فيه أننا لسنا بإزاء بشر حقيقي، بل هو شيء أقرب إلى الصورة المتخيلة وهو ما ينسجم مع فكر النظام وعقليته، ونقرأ أبيات بشر بن المعتمر :

لله در العقل من رائد ... وصاحب في العسر واليسر
وحاكم يقضي على غائب ... قضية الشاهد للأمر
وإن شيئًا بعض أفعاله ... أن يفصل الخير عن الشر
بذي قوة قد خصه ربُّه ... بخالص التقديس والطهر[٨٧]

فنراه يعلي من شأن العقل أيما إعلاء، وهو من مقولات المعتزلة التي يعتزون بها، وينافحون عنها، ولا نريد أن نترك هذا الموضع حتى نقف عند نص للجاحظ نراه أشبه بالتتمة لما سبق، وهو قوله : "فلولا متكلمو النصارى، وأطباؤهم، ومنجموهم ما صار إلى أغنيائنا، وظرافنا، ومجاننا، وأخداننا شيء من كتب البنانية، والديصانية، والمرقونية، والعليائية، ولما عرفوا غير كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها، ومخلاة في أيدي ورثتها"[٨٨]، فهو ينبه إلى الدور الذي قام به أهل الذمة[٨٩] في رفد الحياة الثقافية بروافد جديدة عملت على تنويع المشارب، وتعميق النظر.

هذا ما استطعنا استخلاصه عن الظواهر المتعلقة بالشعر، وهي – بلا شك – معالم هامة ستعيننا على كشف المحاور التي دار الشعر ببغداد في فلكها، والاتجاهات التي تجاذبته، والنوازع المتباينة التي اصطرعت بين جنباته.

– ٥ –

وصل الشعر إلى بغداد إذن وهو يحمل من سمات الأمصار الأخرى سمات وعلامات، وكان منها أن استقبلته بقبول حسن، وراحت تضيف إليه مما جد فيها من وجوه ذكرناها سابقًا أشياء وأشياء، ولم يكن له بعد هذا أن يحافظ على نهجه السابق، أو يبقى على طرائقه القديمة، فللتغير حكمه، وللبيئة الجديدة شروطها، ولاختلاف الأمزجة ضروراتها، فلابد له من أن ينفعل بذلك كله، ويحيا في هذا الوسط الجديد وفق شروط الجديد وخصائصه، وقد فعل؛ إذ رأيناه يأخذ من تلك الشروط بنصيب وافر، ويقبل على الحياة الجديدة فينغمر في تفاصيلها، وتتنوع تبعًا لذلك اتجاهاته وفنونه ما بين مندفع مع هذا الجديد، وآخر يظل على قديمه، وثالث يتوسط بين الاثنين، وهو ما يشهد به من جهة أخرى تاريخ الصراع بين القديم والجديد لا في الشعر وحده، بل في الحياة بمختلف ألوانها.

ومما يجب المسارعة في الوقوف عنده بدءًا هو اللغة بشكل عام، وأسلوب الشعر بشكل خاص، فقد لاحظ الدارسون تغيرًا ملحوظًا في العربية منذ الثلث الأخير من القرن الأول "له خصائص ومميزات يفرق بها أسلوب اللغة العربية الأصيلة التي جاء بها العرب المهاجرون إلى البلاد المفتوحة"[٩٠]، وليس هذا بالأمر الغريب في ظل التحضر الذي لحظناه، وتجاور الألسنة، والأعراق في بقعة واحدة، وهو مما يحسب للعربية؛ إذ "اتسعت .. وتحولت من لغة البدو القديمة إلى لغة حضارية مع المحافظة الشديدة على مقوماتها، وأوضاعها، وأصولها الاشتقاقية، والصرفية، والنحوية"[٩١]، وقد تنبه القاضي الجرجاني من بعيد إلى ذلك التبدل فنراه يقول : ".. فلما ضرب الإسلام بجرانه، واتسعت ممالك العرب، وكثرت الحواضر، ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا التأدب والتظرف، اختار الناس من الكلام أسهله، وألينه، وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة؛ فاختاروا أحسنها مسمعًا، وألطفها من القلب موقعًا، وإلى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسلسها، وأشرفها، وتجاوزوا الحد في طلب التسهيل حتى تسمحوا ببعض اللحن، وحتى خالطتهم الركاكة، والعجمة، وأعانهم على ذلك لين الحضارة، وسهولة طباع الأخلاق، فانتقلت العادة، وتغير الرسم .. واحتذوا هذا المثال .. فصاروا إذا قيست بذلك الكلام الأول يتبين فيها اللين فيظن ضعفًا، فإذا أفرد عاد ذلك اللين صفاءً ورونقًا، وصار ما تخيلته ضعفًا رشاقة ولطفًا"[٩٢]، ويبدو لنا القاضي في هذا النص مدركًا غاية الإدراك جوهر التغير الذي حل باللغة بسبب التحضر، واختلاف البيئات، فما يسمى ضعفًا، ولينًا إنما هو في الحقيقة صفاء، ورونق، ورشاقة تنسجم مع ذلك التغير الكبير، وكأنه يلمح هنا إلى فكرة [النسبية] في النظر إلى حركة اللغة، وضرورة الأخذ بها، والقياس بموجبها، وكان لابد لهذه اللغة [المتحضرة] من أن تمد ظلالها الوارفة على الشعر، وليس هذا بمستغرب أيضًا؛ فاللغة مادته وجوهره الحق، فأخذ منها ما شاء له الأخذ، وتمثل ذلك في "شيوع السهولة، وإيثار البساطة،

والتحلل من قيود الصنعة الفنية في أسلوب الشعر"[٩٣]، ولعل خير من يمثل ذلك التحول في طبيعة الشعر والشاعر معًا قصيدة أبان بن عبد الحميد اللاحقي التي يقدمها للفضل بن يحيي البرمكي، يقول فيها :

أنا من بغية الأمير وكنز ... من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب أديب خطيب ... ناصح راجح على النُصاح
شاعر مفلق أخف من الري ... شة مما تكون تحت الجناح
لي في النحو فطنة واتقاد ... أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروي من ابن سيرين للـ ... ـعلم بقول منور الإفصاح
وظريف الحديث من كل فنّ ... وبصير بترهات الملاح
كم وكم قد خبأت عندي حديثاً ... هو عند الملوك كالتفاح

وتستمر القصيدة على هذه الشاكلة من إظهار ما يتقنه من فنون، وأحاديث، وأخبار وقدرة على تسلية الملوك، والأمراء، ولعل الصورة تبدو أكثر وضوحًا حين نوازن هذه القصيدة بقصيدة الفرزدق[٩٤] مثلاً، تلك التي يؤكد فيها وراثته للشعر الذي تقدمه، ولم يكن ذلك الشعر سوى جندل ثقيل حمل همه فهو مؤتمن عليه، وليس هناك من رابط فكري يربطها بقصيدة اللاحقي، فهما عالمان مختلفان، وبيئتان متباينتان، ولهذا وصل التغير إلى غايته ومداه، ولكننا نسارع فنقول : إن أغراض الشعر العربي التي عرفناها في عصوره السابقة ظلت كما هي مثل الغزل، والمديح، والرثاء، والوصف، والهجاء، وهي تأخذ من ذلك السابق بنصيب، ولكن داخلها جديد مستمد من البيئة الجديدة من حيث الأفكار، والصور، كما استجدت أغراض جديدة، ولهذا التبدل أسبابه الكثيرة التي ألمحنا إلى بعضها فيما سبق، ولهذا تمكنا من رصد مجموعة من الاتجاهات، أو المذاهب تحركت داخل الشعر، مثلتها طوائف من الشعراء واستطاعت أن توجد لها نوعًا من الاستقلال بعضها عن بعض مع الإشارة إلى التجاذب الحاصل بينها، وهو أمر بديهي في الفنون بحيث لا يمكن وضع فواصل ثابتة بينها غير أنها جميعًا أفادت من هذه البيئة الجديدة، والمناخ الثقافي الذي استظلت بظله.

ولعل الاتجاه التجديدي هو الذي نواجهه أولاً ما دمنا بصدد الحديث عن المدينة [الجديدة]، والظاهرة [الحضارية]، ولعل خـير من يمثلها من الشعراء : بشار بن برد، وحماد عجرد، وأبو الشمقمق، ومطيع بن إياس، ووالبة بن الحباب، والحسين بن الضحاك، وأبو العتاهية[٩٥]، وأبو نواس، وقد أخرنا أبا نواس لأسباب ستأتي. ويصف الدكتور الجواري هذه الطائفة من الشعراء بأنها قد "سلكت في فنها الشعري – على وجه العموم – مسلك الثورة على القديم، والتحرر من قيوده قدر المستطاع، وحاولت أن تخرج على قواعد الفن في أسلوب الشعر، وأن تجدد في موضوعاته ما شاء لها تحللها، أو تحررها أن تفعل"[٩٦].

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان أدنى إلى المنطق، ولكنها "طائفة غلب عليها الهزل والمجون، وتميزت بالتحلل، ولم تكن تبالي بشيء أو تلتزم حدودًا في عقيدة أو خلق"[٩٧]، وما يهمنا منها هو تجديدها الشعري، أما ما يتعلق بالحياة والسلوك فهو موضوع آخر، ويحتاج إلى وقفة طويلة[٩٨].

ولعل أشهر ما عُرف عن ذلك الاتجاه هو ثورته على افتتاح القصيدة بالطلل، ودعوته إلى نبذ هذا التقليد، واستبـداله بشيء آخر كأن يكون الخمر مثلاً، أو الغزل، وقد أدى هذا إلى أن تأتي كثير من قصائدهم خالصة لموضوع واحد فقط، وهو ما ينأى بها عن القصيـدة القديمة ذات الموضوعات المتعددة. ولم يكن أبو نواس نسيج وحده في هذا الأمر، بل شاركه بقية الشعراء الذين سقناهم سابقًا مما يجعل منها ظاهرة واضحة؛ فحين يقول أبو نواس :

ما لي بدارٍ خَلَتْ من أهلها شُغُل ... ولا شجاتي لها شخص ولا طَلَلُ

لا الحزن مني برأي العين أعرفه ... وليس يعرفني سهل ولا جبل

يجيبه عبد الله بن أمية قائلاً :

دع دراسات الطلول ... وكل ربع محيل

ولا تصف دار سلمى ... ذرها لكل جهول

ويأتي صوت بشار قبلهما قائلاً :

كيف يبكي لمحبس في طلول ... من سيبكي لحبس يوم طويل

إن في البعث والحساب لشغلاً ... عن وقوف برسم دار محيل[٩٩]

وكأن التمرد على التقليد القديم كان أشبه بالمقدمة التي ولّدت مجموعة من النتائج، منها جنوح الشعراء إلى المقطعات القصيرة، والأوزان الخفيفة التي تتناسب مع هذه الحياة الحضرية، ومنها أيضًا ركوبهم السفن والحراقات بدلاً من الجمال والخيل في الرحلة إلى الممدوح كما كان يفعل الشاعر القديم، ومنها أيضًا انصرافهم إلى ذواتهم بدرجة كبيرة، ووصف حياتهم، وسلوكهم، وتغليب ذلك الجانب الذاتي عن سواه، ومنها أيضًا تلك الواقعية التي برزت في شعرهم ويراد بها "تسجيل أحداث عصرهم في أمانة وصدق، كما كان شعرهم كله صدى قويًّا للحياة"[١٠٠]، ورأينا هذا بوضوح في وصف الأحداث الجسام التي مرت على بغداد فسجلها الشعر وأمعن في وصفها، ومنها كذلك اعتماد أسلوب خاص في الهجاء يغلب الإسفاف، ويوغل في الوصف والإضحاك بعد أن كان يقوم على الإيلام والإيجاع[١٠١]، ومنها أخيرًا سلوك الرثاء مسلكًا مختلفًا عما سبق؛ إذ دخل فيه رثاء المغنين، والعازفين، ولعلنا نقول مع الدكتور الجواري : إننا "نحار في ذلك الرثاء أيقصد فيه قائلوه إلى الهزل والعبث والمجون أم يقصدون به إلى الحزن والبكاء بحق"[١٠٢].

وأخرنا أبا نواس قليلاً لأننا نعتقد أن ما عرف عنه من شعر في الخمر إنما يمثل جماع ذلك التجديد[١٠٣]، فقد فتق المعاني فيها، وأتى بالجديد المستحدث، وأمعن في وصفها، وابتكر ما نستطيع تسميته بالقصة الخمرية، وهو في خلال ذلك كله يثور على القديم، وينعي عليه، ويقدم القصيدة خالصة للخمرة ووصفها، مع أخذ بيّن بأسباب الحضارة سواء في البناء أم في الفكرة، والشواهد على هذا أشهر من أن تذكر.

هذا عن الاتجاه التجديدي، أما ما يقابله فهو الاتجاه التقليدي، ونعني به التزام مجموعة من الشعراء بتقاليد القصيدة العربية القديمة سواء من حيث بناؤها، أم موضوعاتها، ونرى هذا متجليًا عند مروان بن أبي حفصة، وإسحاق بن إبراهيم الموصلي، وعمارة بن عقيل، والعكوك، وبكر بن النطاح وغيرهم، ونراه متجليًا أيضًا في جانب من شعر المجددين أيضًا وهو ما يتصل بالمديح، والفخر، ويلتفت الدكتور الجواري إلى هذا الاتجاه قائلاً عن بعض شعرائه : إنهم "لولا ما ذكروه في شعرهم من الأعلام العباسية لما أمكننا أن نستدل على عصرهم، ولجاز أن يتوهم دارس الشعر أنه قيل في العصر الأموي أو في العصر الجاهلي"[١٠٤]، ونجد مصداق هذا القول في أبيات لإسحاق الموصلي يقول فيها :

ومدرجة للريح تيهاء لم تكن ... ليجشمها زميلة غير حازم
يضل بها الساري وإن كان هاويًا ... وتقطع أنفاس الرياح النواسم
تعسفت أفري جوزها بشملّة ... بعيدة ما بين القرى والمنادم[١٠٥]

ومعلوم أنه يصف الصحراء التي اعتسفها وهو راكب تلك الناقة القوية، وليس هناك من صحراء أو ناقة على الحقيقة، وإنما هو التقليد الذي أعجب به، ويقول نصيب الأصغر يمدح الرشيد :

خليلي إني ما يزال يشوقني ... قطين الحمى والظاعن المتحمل
فأقسمت لا أنسى ليالي منبج ... ولا مأسل إذ منزل الحيّ مأسل
أمن أجل آيات ورسم كأنه ... بقية وحي أو رداء مسلسل
جرى الدمع من عينيك حتى كأنه ... تحدّر دُرٌّ أو جمان مفصل[١٠٦]

فهو يذكر المواضع، والأطلال، ويستخدم التشبيهات القديمة من حيث إنها رداء، وكتابة وما إليهما، مع أنه يقف في الحاضرة العباسية أمام الرشيد؛ ولهذا نستطيع القول : إن ذلك التقليد الذي أخذ به أولئك الشعراء أنفسهم قد ساقهم إلى المقدمة الطللية، وإطالة القصيدة، واحتوائها موضوعات كتلك التي ألفناها في القصيدة القديمة، مع الوفاء بمتطلبات الجزالة، والفصاحة التي تقربهم من النمط القديم، وتتيح لقصائدهم أن تلقى في المحافل، أو بين السماطين على حد قول الجاحظ[١٠٧].

ويقف بين الاتجاهين ثالث لهما يأخذ من الاثنين بنصيب، ولكنه يحاول أن يشق لنفسه طريقًا بينهما، وهو ما يسميه الدكتور الجواري بأسلوب [المتفننين]، ويمكن تسميته أيضًا بـــ [الوسط]، ولعله البداية المبكرة لمذهب الصنعة التي وجدناها سابقًا عند [عبيد الشعر]، وستأخذ طريقها حتى تستقر عند أبي تمام وأضرابه من الشعراء الذين يعنون بالزخرفة، والتعقيد بالإضافة إلى التصالح مع مقومات الشعر الأخرى، ولعل خير من يمثل هذا الاتجاه مسلم بن الوليد، وكلثوم بن عمرو العتابي، ومنصور النمري وغيرهم، ويقول الدكتور الجواري : إن هؤلاء الشعراء "ثمرة لواقع البيئة البغدادية التي استندت في تجديد الشعر إلى الثروة التي ورثتها من الرواية والميل الشديد إلى مدارسة القديم والعناية به"(١٠٨)، ومما يؤكد هذا الأمر أن شاعرًا ذا اتجاه تقليدي هو عمارة بن عقيل سكن بغداد استمع يومًا لقصيدة أبي تمام التي مطلعها :

الحق أبلج والسيوف عوارٍ فحذار من أسد العرين حذار

فلما بلغ إلى قوله :

سود اللباس كأنما نسجت لهم أيدي السموم مدارعًا من قار
بكروا وأسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون، ومن رآهم خالهم أبدًا على سفر من الأسفار

قال : "لله دره ما يعتمد معنى إلا أصاب أحسنه كأنه موقوف عليه"(١٠٩)، وهذا يشير إلى أن عمارة قد أدرك أن ما يسمعه من شعر يؤدي معاني جديدة نجح الشاعر في سبكها مع اختلافه معه، ويربط الدكتور شوقي ضيف بين هذا اللون من الشعر وبين المجتمع حين يقول : ".. وليس الشعر وحده الذي أخذ يسود فيه هذا التصنيع فقد كان يشيع في فن العمارة، وبناء المساجد، والقصور، كما كان يشيع في

التصوير الذي كان يستخدم زينة وزخرفًا للكتب، فلا عجب أن ينتقل إلى الشعر والشعراء، وأن ينمو مع الزمن حتى تصبح القصيدة كأنها واجهة لمسجد مزخرف بديع"[١١٠]، ويكفي أن نقف عند نموذج مبكر لمسلم بن الوليد المتوفى سنة ٢٠٨ للهجرة لنرى هذا التوسط الذي أخذ به نفسه، واتبعه فيه من جاء بعده، يقول :

لولا يزيد لأضحى الملك مطرحاً ... أو مائل السِّمك أو مسترخى الطِّول

يغشى الوغى وشهاب الموت في يده ... يرمي الفوارس والأبطال بالشَّعَل

موفٍ على مُهَج في يوم ذي رهج ... كأنه أجل يسعى إلى أمل

لا يرحل الناس إلا نحو حجرته ... كالبيت يُفضي إليه ملتقى السبل

وتستمر الأبيات على هذه الشاكلة في الإفادة من تراث الشعر العربي، والأخذ من هذه الحياة الثقافية الجديدة، فالممدوح شجاع لا يخاف الحرب، وهذا معروف، أما [الشعل] فهي جديدة من لوازم الحرب التي يراها مسلم أو يسمع عنها، ويقف البيت الثالث مشيرًا إلى نفسه من حيث تعمد الجناس والتشبيه مما يشي [بصنعة] مقبولة ستأخذ مداها البعيد فيما بعد.

ونؤكد هنا ما أشرنا إليه سابقًا من أن هذه الاتجاهات جميعها تستظل بالمناخ الثقافي الواسع الذي هيأته بغداد للشعراء؛ فأخذ كل منهم ما ارتضاه، واقتنع به، وتظل قضية التجاذب بين الاتجاهات واضحة تدل على مدى الحرية التي تمتع بها الشعراء من جهة، وصعوبة تحديد الشعر في قوالب ضيقة من جهة أخرى.

ويبقى لنا أن نمر مسرعين على ثلاثة فنون شاعت في الشعر ببغداد، ورسخت فيها، وهي : الشعر التعليمي[١١١]، والصوفي[١١٢]، والشعبي[١١٣]، ويتبين من عنواناتها المضامين التي تحركت فيها، والأفكار التي عالجتها، وهي بمجموعها تمثل ذلك الامتزاج الثقافي، والرقي الفكري، كما نجد الآثار التي تركتها الحاضرة على الشعر ماثلة فيها، وهي التي فصّلنا الحديث عنها فيما سبق.

– ٦ –

أوردت بعض المصادر ما يفيد بأن هولاكو تردد كثيرًا في قتل المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس، واستباحة بغداد؛ لأنه خشي أن يؤدي هذا العمل إلى شروق الشمس من المغرب[١١٤]، والخـــبر بعدُ محتاج إلى تمحيص ونخل، غير أن ما يهمنا منه هو ما وقر في الأذهان، واستقر في الوجدان العام من حرمة بغداد، ومكانتها العالية في النفوس بحيث ينتقل هذا الهاجس إلى جانب العدو، فقد استمرت الأسرة العباسية تحكم منذ سنة ١٣٢ للهجرة حتى سنة ٦٥٦ للهجرة، وظلت الحركة العلمية قوية منتعشة في بغداد بعد المرحلة التي تحدثنا عنها بوقت طويل، ويؤكد الدكتور شوقي أن "حيوية بغداد كانت أقوى من الخراب الذي أصابها مع غزو هولاكو، ومع خروج صولجان الحكم منها، فقد ظلت لها مسحة غير قليلة من عراقتها، وظلت منزلاً للعلم والعلماء"[١١٥]، وكان الشعر وجهًا مشرقًا من وجوه تلك الحركة، فقد ظل ينتقل بين الشعراء جيلاً بعد جيل، وليست أسماء مثل ابن الرومي، والشريف الرضي، وأخيه المرتضى، ومهيار، وابن الحجاج وغيرهم كثير، سوى شواهد على ما نقول، فقد عملوا على إذكاء شعلة الشعر بما قدموه من إنتاجهم المستمر المتجدد بما أتاح لحياة الشعر في بغداد أن تعيش طويلاً رغم ما أصابها من كوارث ونوازل.

العواصم الثقافية العربية وحركة الشعر – ٢٢٠

الهوامش

(١) يتحدث الدكتور شاكر مصطفى في إحصاء جيد عن الكتب التي ألفت في تواريخ المدن، فنرى بغداد تحتل مرتبة متقدمة في هذا الإحصاء؛ إذ تظفر بخمسة عشر مؤلفًا، وتقع هذه المؤلفات بمائتين وأربعة وثمانين مجلدًا.

كما أن تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ صار نموذجًا [يحتذى في كتابة التواريخ المدنية الأخرى في الإسلام]، ولذلك راحت الكثرة من المؤلفات تقلد الخطيب، ويقدم كل مؤلف لتاريخ مدينته بمقدمة يصور بها المدينة قبل أن يذكر رجالها العلماء، ينظر كتابه المدن في الإسلام، ١/ ٣٨ – ٣٩.

(٢) جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، ١/٤١٩.

(٣) ينظر : ما كتبه دكتور صالح أحمد العلي في كتابه : بغداد مدينة السلام عن هذا الموضوع، ص : ١٩ وما بعدها.

(٤) جاء في الفخري، ص : ١٥٦، "واعلم أن المنصور هو الذي أصل الدولة، وضبط المملكة، ورتب القواعد وأقام الناموس".

(٥) جاء في معجم البلدان، ١/ ٤٥٧ : "أن المنصور بعث روادًا وهو بالهاشمية يرتادون له موضعًا يبني فيه مدينة ويكون الموضع واسطًا رافقًا بالعامة والجند، فنعت له موضع قريب من بارما .. فخرج إليه بنفسه حتى نظر إليه وبات فيه، فرأى موضعًا طيبًا فقال لجماعة : .. ما رأيكم في هذا الموضع؟ قالوا : طيب موافق، فقال : صدقتم ولكن لا مرفق فيه للرعية".

وجاء في تاريخ بغداد، ١/ ٦٦ : أن المنصور لما أراد :أن يبني لنفسه كان يؤتي من كل مدينة بتراب فيعفنه فيصير عقارب وهوامًا حتى أتى بتربة بغداد فخرج صرّارات"، "كما إنه انحدر إلى جرجرايا، وأصعد إلى الموصل، ثم أرسل جماعة من الحكماء ذوي اللب والعقل وأمرهم بارتياد موضع"، الفخري، ص : ١٥٩، ويضاف إلى ما سبق أن المنصور "عندما بدأ البحث عن مكان يقيم فيه عاصمته الجديدة في أواسط العراق كان قد خبر مناطقه مثل الأنبا، والكوفة"، ينظر : بغداد مدينة السلام، دكتور صالح العلي، ص : ٢٨، كما إنه سأل أهل القرى المحيطة ببغداد عن أحوال قراهم؛ فطمأنوه على حسن اختياره، ينظر : الحواضر الإسلامية الكبرى، دكتور عصام الدين عبد الرءوف، ص : ١١٥.

(٦) سأل المنصور دهقان بغداد فأجابه بجواب طويل، ينظر : تاريخ الطبري، ٣/ ٢٧٦، ومعجم البلدان، ١/ ٤٥٨، كما سأل راهبًا كان مقيمًا في دير هناك فأجابه. ينظر تفصيل ذلك في : تاريخ بغداد، ٦٦/١، ومعجم البلدان، ١/ ٤٥٨، والفخري، ص : ١٥٩.

(٧) في تاريخ بغداد، ١/ ٦٧، أن المنصور وضع أساس المدينة في وقت اختاره له نوبخت المنجم، كما أخبره أحد المنجمين أن النجوم تشير إلى "طول زمانها وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا إليها، وفقر الناس إلى ما فيها، وأنه لا يموت فيها خليفة من الخلفاء"، ينظر : تاريخ بغداد، ١/ ٦٨، وينظر كذلك : المدن في الإسلام، شاكر مصطفى، ١/ ٣٦٧ – ٣٦٨، وناقش الدكتور عصام الدين عبد الرءوف هذا الموضوع مناقشة علمية، ينظر كتابه : الحواضر الإسلامية الكبرى، ص : ١١٣ وما بعدها.

(٨) يقول المسعودي : "إن المنصور كان أول خليفة قرّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم، وكان معه نوبخت المجوسي المنجم، وأسلم على يده، وهو أبو هؤلاء النوبختية، وإبراهيم الفزازي صاحب القصيدة في النجوم .. وعلي بن عيسى الاصطرلابي"، مروج الذهب، ٤/ ٣٢٣.

(٩) من المفيد أن نشير هنا إلى أن بعض الدارسين جعل المدن أنواعًا حسب وظائفها؛ فهناك المدن المصر، والقصبة ، والحصن، وغيرها، أما بغداد فهي من المدن الملكية وخصوصًا في أول بنائها؛ إذ يبنيها السلطان لسكنه الخاص وسكن جماعته وحرسه، كما إنها – أيضًا – من المدن التوائم، فقد بدأت مدينتين على جانبي دجلة : دار السلام غربي النهر، أو جانب باب الطاق مع الكرخ، وجانب الرصافة ويسمى عسكر المهدي شرقي النهر، ينظر تفصيل ذلك في : المدن في الإسلام، ١/ ١٢١، ١٣٢.

(١٠) بغداد مدينة السلام، ص : ٢٨.

(١١) الحواضر الإسلامية الكبرى، ص : ١١٤.

(١٢) المدن في الإسلام، ١/ ٢٣٠.

(١٣) تاريخ بغداد، ١/ ٢٥ – ٢٦.

(١٤) المدن في الإسلام، ١/ ٣٣١، ولعل هذا هو الذي دعا الباحثين إلى الاختلاف في كلمة (بغداد) أهي فارسية أم آرامية؛ إذ يذهب المستشرق لسترانج، والدكتور أحمد الجواري إلى أن الكلمة آرامية "تعود إلى العهود العربية القديمة قبل الاحتلال الفارسي لجزء من العراق، ولا صلة للتسمية الفارسية باسم (بغداد)"، ينظر : كتاب دكتور الجواري، الشعر في بغداد،

ص : ١٠، بينما يذهب آخرون منهم إلى أن (بغداد) كلمة فارسية منحوتة من كلمتين هما : (بغ) و (داد) ومعناها عطية الله، وفي الكلمة آراء أخرى. ينظر : معجم المعربات الفارسية، دكتور محمد التونجي، ص : ٤٢، والشعر في بغداد، ص : ١٠ وما بعدها ففيه تفصيل مهم.

(١٥) وورد في المصادر ما يفيد أن المنصور كان يعتقد أن العناية الإلهية قد ساعدته في الوصول إلى هذا الموقع؛ فحين سأل على اسم الموقع، قيل له : بغداد، فقال : "هذه والله المدينة التي أعلمني أبي محمد بن علي أني أبنيها وينزلها ولدي من بعدي، ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهلية والإسلام حتى يتم تدبير الله لي وحكمه فيّ وتصح الروايات وتبين الدلائل والعلامات، وإلا فجزيرة بين دجلة والفرات، دجلة شرقيها والفرات غربيها مشرعة للدنيا .. فالحمد لله الذي ذخرها لي وأغفل عنها كل من تقدمني"، البلدان، ص : ٢٣٧ – ٢٣٨، فكأن النبوءة والواقع والطالع تتجمع كلها لتدفع المنصور إلى هذا الموقع ليجعل منه مدينته العالمية.

(١٦) تاريخ بغداد، ١/ ٦٧.

(١٧) معجم البلدان، ١/ ٤٥٨، ويقول شاكر مصطفى : "ثم أمر المنصور بإحضار البنائين والمهندسين من الشام والعراق وبلاد الديلم .. وكان عددهم مائة ألف"، ينظر : المدن في الإسلام، ١/ ٣٦٨، وتضيف الدكتورة رمزية الأطرقجي قائلة : "كأن اختلاف انتساب هؤلاء المهندسين والعمال إلى سائر الأقطار الإسلامية قد أدى إلى مزيج من الأطرزة المعمارية والهندسية، فلا شك أن عمال الشام وواسط قد جلبوا معهم طراز البناء الأموي الذي كان متأثرًا بالفن البيزنطي والإغريقي، كما أن عمال فارس وبابل قد أوجدوا تأثيرات فارسية، كما نقل عمال البصرة والكوفة أطرزة بناء المدن العربية الإسلامية القديمة، وتطورت هذه التأثيرات في فن العمارة في بغداد تطورًا تدريجيًا إلى أسلوب إسلامي زخرفي أصيل". ينظر : الحياة الاجتماعية في بغداد، ص : ٣٤، ولهذا الموضوع صلته القوية بـ (عالمية) المدينة.

(١٨) البلدان، ص : ٢٥١.

(١٩) المصدر السابق، ص : ٢٤١، ومما يذكر هنا أن الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان شارك في العمل من خلال عدّه اللبن بالقصب، ينظر : تاريخ بغداد، ١/ ٧١، مع التعليق.

(٢٠) تاريخ بغداد، ١/ ٧٥، ومعجم البلدان، ١/ ٤٦٠، وهناك تفصيل وافٍ عن هذه الأبواب في كتاب بغداد مدينة السلام، ص : ٣١١ وما بعدها.

[٢١] المدن في الإسلام، ١/ ٣٢١.

[٢٢] بغداد مدينة السلام، ص : ٨٧.

[٢٣] المرجع السابق، ص : ٨٧.

[٢٤] ومما يرد هنا أنه : "قام في شرق بغـداد سوق صيني متكامل يجد فيه المرء حاجته من فرو النمور والثعلب، فضلاً عن الأسماك وزيـت كبد الحوت والعنبر والجلود والشمع"، ينظر الحياة الاجتماعية في بغداد، ص : ٢٢٢، وهذا يشي بوجود جالية صينية كانت تقوم بمثل هذا العمل.

[٢٥] للعلماء والفلاسفة آراء مختلفة في قضية تصنيف العلوم، وقد تحدث عنها الكندي، والفارابي، وابن سينا، والخوارزمي، أما ابن خلدون فقد فصّل الحديث عنها تفصيلاً مهمًّا في مقدمته، فالعلوم النقلية عنده أو الشرعية هي : علوم اللسان والفقه والحديث والتوحيد والكلام والتصوف وتعبير الرؤيا، وهذه جميعها تختص بالملة الإسلامية، أما العلوم العقلية فهي المنطق، والعلم التطبيقي، ويقسم قسمين : الطب والفلاحة، والعلم الإلهي، والتعاليم وهي تقسم بدورها إلى الهندسة والحساب والموسيقى والهيئة، وكل واحد منها يقسم أقسامًا؛ فالحساب يقسم إلى : براهين الحساب، وصناعة الحساب، والجبر، والمقابلة، والمعاملات، وعلم الفرائض وهكذا. ومن الواضح أن هذه العلوم جميعها وفق هذا التقسيم المتأخر زمنيًّا وجدت رواجًا في بغداد، ينظر : إحصاء العلوم للفارابي، وتصنيف العلوم بين الفارابي وابن خلدون، دكتور محمد على أبو ريان، مجلة عالم الفكر الكويتية، العدد الأول، سنة ١٩٧٨.

[٢٦] تاريخ بغداد، ١/ ٤٦.

[٢٧] المصدر السابق، ١/ ٤٣.

[٢٨] ومن فقهائها الكبار أيضًا محمد بن الحسن الشيباني الذي قرأ الإمام الشافعي كتبه وخرج بعد هذا "إلى مصر ونشر بها مذهبه الذي يجمع بين طريقة الحجازيين في الاعتماد على الكتاب والسنة وطريقة العراقيين في الاعتماد على القياس"، العصر العباسي الأول، دكتور شوقي ضيف، ص : ١٣١.

[٢٩] ينظر : الحواضر الإسلامية الكبرى، ص : ٢٥٨.

[٣٠] وممن يذكر هنا أيضًا محمد بن عمر الواقدي صاحب الكتب التاريخية الكثيرة، وتلميذه محمد بن سعد الذي روي عن أستاذه الواقدي وله كتاب [الطبقات] وهو من أجل الكتب، ويرد أيضًا المؤرخ البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر صاحب كتابي الأنساب وفتوح البلدان وغيرهم.

(٣١) الحيوان، ٢/ ١٣٤.

(٣٢) عيون الأنباء، ٢٠٦/١.

(٣٣) ينظر حركة الترجمة في المشرق الإسلامي، د. رشيد الجميلي، ص : ٣٧٣.

(٣٤) يقول المسعودي : "إن المنصور هو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية"، مروج الذهب، ٤/ ٣٥٤، ويقول دكتور الجميلي : "لقد كان الرشيد يولي العلماء الذين يدرسون كتب العلوم اليونانية ويترجمونها مساعدات مجزية، وقد أنفذ الرسل إلى إمبراطورية الروم ليشتروا المخطوطات اليونانية"، حركة الترجمة، ص : ٨٨٨، ويقول صاعد الأندلسي : "ولما أفضت الخلافة إلى عبد الله المأمون .. وطمحت نفسه الفاضلة إلى إدراك الحكمة، وسمت به همته الشريفة إلى الإشراف على علوم الفلسفة .. جمع علماء عصره من أقطار مملكته وأمرهم أن يصنعوا مثل تلك الأدوات التي وردت في كتاب المجسطي"، طبقات الأمم، ص : ٦٧، عن دكتور رشيد الجميلي، ص : ١٠٨، وجاء في تاريخ الحكماء، ص : ٢٩ : "فراسل المأمون ملك الروم .. وطلب منه كتب الحكمة من كلام أرسطو طاليس"، ويقول ماكس ماير هوف : "... وحوالي سنة ٢٤١ للهجرة جدد الخليفة المتوكل في بغداد مدرسة الترجمة والمكتبة"، دكتور رشيد الجميلي، ص : ١١٩.

(٣٥) مثل البرامكة فهم لم يكتفوا برعاية الترجمة بل طلبوا الكتب من ملك الروم فأرسلها إليهم، ينظر : صون المنطق، ص : ٦، عن الجميلي، ص : ٩١. وأيضًا الوزير محمد عبد الملك الزيات الذي كان ينفق على الترجمة مبالغ كبيرة، ينظر تفصيل ذلك في مقدمة ديوانه، وكذلك طاهر بن الحسين، والحسن بن مخلد بن الجراح الذي وزر ثلاث مرات للمعتمد، ينظر : الفكر اليوناني، ص : ٢١٨ وما بعدها.

(٣٦) مثل أسرة موسى بن شاكر، وأسرة جبرائيل بن بختيشوع، وأسرة المنجم، وغيرهم.

(٣٧) مثل يوحنا بن ماسويه، وسلمويه بن بنان، والكندي، وغيرهم، ينظر هنا والهامش السابق، الفكر اليوناني، ص : ٢١٤ وما بعدها، وحركة الترجمة، ص : ١١٦ وما بعدها، والعصر العباسي الأول، ص : ١٠٩ وما بعدها.

(٣٨) يقول المسعودي : "والمنصور أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية .. وسائر الكتب القديمة من اليونانية، والرومية، والفهلوية، والفارسية، والسريانية، وأخرجت إلى الناس فنظروا فيها، وتعلقوا إلى عملها"، مروج الذهب، ٤/ ٣٥٤، ويقول السيوطي : "إن يحيى بن خالد بن برمك طلب الكتب اليونانية من ملك الروم .. فلما وصلت إليه جمع عليها كل زنديق وفيلسوف .. ثم جعل يحيى المناظرة في داره

والجدال فيما لا ينبغي فيتكلم كل ذي دين في دينه ويجادل عليه آمنًا على نفسه"، صون المنطلق، ص : ٦، ولا يفوتنا موقف الإمام السيوطي من هذه الحركة وتوجيهه النص الوجهة التي يريدها.

(٣٩) مثل يوحنا بن ماسويه، وبختيشوع بن جبرائيل، وحنين بن إسحاق، وولده إسحاق بن حنين، وحبيش بن الأعسم، وقسطا بن لوقا البعلبكي، ومتى بن يونس، ويحيي بن عدي، وعيسى بن إسحاق بن زرعة، ومن الضروري التنبيه على أن أولئك النصارى لم يكونوا على مذهب واحد.

(٤٠) وبهذا الصدد يقول جرجي زيدان : "وفي هذا الدور تقاطر إلى بغداد المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس، وفيهم النساطرة، واليعاقبة، والصابئة، والروم، والمجوس، والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والهندية وغيرها"، تاريخ التمدن الإسلامي، ٣/ ١٦١.

(٤١) من هذه الاعتبارات معرفتهم اللغات الأجنبية، وإقامة كثير منهم في الأديرة التي تحتفظ بمكتبات كبيرة فيها كتب بلغات أخرى، وإطلاعهم على ما لدى الأمم الأخرى من تراث مكتوب.

(٤٢) مرت العربية بامتحان عسير آخر في القرن التاسع عشر، وهذه المرة في مصر، وذلك حين بدأت البعثات التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا تعود إلى مصر، وتضطلع بمهامها في التدريس والترجمة، وواجهت صعوبات جمّة في نقل العلوم الغربية الحديثة إلى العربية، ويقف في الطليعة من هذه الجهود رفاعة الطهطاوي الذي بذل جهودًا كبيرة في تذليل تلك الصعوبات، وكأنه يذكرنا بما فعله أسلافنا في العصر العباسي، وقد نجح أيمّا نجاح في ذلك النقل المثمر.

ينظر عن هذا الموضوع : تاريخ الترجمة، دكتور جمال الدين الشيال، ص : ٢١١ وما بعدها، وحركة الترجمة بمصر، جاك تاجر، ص : ١٤١، وهو يلتفت إلى المقارنة بين ما حدث في مصر وبغداد، ينظر : ص : ١٣٥، وينظر أيضًا : أزمة المصطلح العربي في القرن التاسع عشر، محمد سواعي، ص : ١١٥ وما بعدها.

(٤٣) ونجد مصداق هذا فيما تحدث به بعض العلماء عن مناهج الترجمة، فبينما نرى أحمد بن عبد الله بن سلام يذكر أنه كان يترجم عن لغة العبرانية واليونانية والصابئة .. إلى اللغة العربية حرفًا حرفًا،

-- أقول : نجد الصفدي في الغيث المسجم، ٧٩/١ يجعل "للتراجمة في النقل طريقتين أحدهما .. أن ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل إلى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه، وهذه الطريقة رديئة .. والطريق الثاني .. وهو أن يأتي إلى الجملة فيحصل معناها في ذهنه، ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الألفاظ أم خالفتها، وهذه الطريقة أجود"، ويضيف ابن تيمية في كتابه نقض المنطق، ص : ٩٧ – ٩٨، طريقة ثالثة هي : بيان صحة المعنى وتحقيقه بإبراز الدلائل المجردة من أمثلة ومقاييس تساعد على فهم المعنى، ولعل هذا يشير إلى تغير مفهوم الترجمة لدى التراجمة العرب بمرور الوقت، وضرورة تطوير أدواتهم باستمرار.

(٤٤) هناك قوائم طويلة من عنوانـــات الكتب التي تم نقلها عن تلك اللغات نجدها في : الفهرست لابن النديم، وكتاب أخبار العلماء، للقفطي، وعيون الأنباء، لابن أبي أصيبعة، وطبقات الأطباء لابن جلجل، بالإضافة إلى كتاب دكتور رشيد الجميلي، حركة الترجمة في المشرق الإسلامي، وكتاب الفكر اليوناني والثقافة العربية، ديمتري غوتاس.

(٤٥) فصّل دكتور رشيد الجميلي الحديث عن هذه العلوم والفنون وما نقل فيها إلى العربية تفصيلاً جيدًا، ينظر كتابه : حركة الترجمة، ص : ٣٣٣ وما بعدها.

(٤٦) العصر العباسي الأول، ص : ١١٧.

(٤٧) ينظر : تاريخ التراث العربي، ١/ ٥٣ وما بعدها.

(٤٨) وهم الذين أشرنا إلى بعضهم فيما سبق من حيث رعايتهم للحركة الأدبية والعلمية والترجمة.

(٤٩) تنظر : الخريدة، القسم العراقي، ٧/١ وما بعدها.

(٥٠) من الواجب العلمي علينا أن نشير إشارة خاصة إلى العمل الكبير الذي قام به الأستاذ علـــي الخاقاني حين تصدى لجمع شعراء بغداد في كتاب أسماه [شعراء بغداد من تأسيسها حتى اليوم]، وصدر منه – بحسب علمي – جزءان سنة ١٩٦٢، ببغداد، قدم في تينك الجزئين ثلاثمائة واثنين وأربعين شاعرًا، رتبه على الحروف ووقف عند حرف الحاء فقط، فإذا اعتمدنا القياس فسيصل إلى أكثر من ألف وخمسمائة شاعر اعتمادًا على الجزئين المشار إليهما، وقد اعتمد الأستاذ الخاقاني منهجًا علميًا في رصد الشعراء، وإثباتهم في كتابه بحيث اعتبر الشاعر "بغداديًا لسببين : إما بالنسب أو بالسبب؛ فالأول هو الـــذي ولد ببغداد، ونشأ بها، وتعلم بجوامعـــها، ومدارسها، وحتى لو هاجر منها فهو بغدادي،

والثاني : هو الذي يأتيها مع أب له، أو الذي يهاجر إليها بقصد التوطن أو البقاء زمنًا يستفيد خلاله من آدابها وعلومها؛ فإذا ما مر عليه أكثر من عشر سنوات أصبح متأثرًا بجوها ومزاج أهلها ومتصلاً بأنديتها، وخائضًا لحلباتها فـذلك ما يسوغ لي اعتباره بغداديًّا"، ينظر : ١/ ٧، ولا ريب في أن هناك مآخذ تند من هنا أو هناك على ذلك العمل، غير أنه يبقى فريدًا في بابه، فذًّا في فكرته.

(٥١) التوزيع اللغوي الجغرافي، ص : ٥٩، ومما يذكر هنا أن كثيرًا من المترجمين – كما ذكرنا سابقًا – كانوا من السريان ونقلوا من لغتهم السريانية إلى العربية كتبًا كثيرة.

(٥٢) المرجع السابق.

(٥٣) ينظر : الأغاني، ٥/ ١٧٦.

(٥٤) المعمودية أول أسرار الدين المسيحي وباب النصرانية وهي غسل الصبي وغيره بالماء باسم الأب والابن والروح القدس.

(٥٥) المطران مرتبة دينية، وهي دون رتبة الجاثليق.

(٥٦) باعوث الابتهال والتضرع، وهو صوم يسميه نصارى العراق باعوث نينوي، ينظر : الديارات، ص : ٢٠٥.

(٥٧) مارت لفظة سريانية معناها : السيدة.

(٥٨) الديارات، ص : ٢٠٥.

(٥٩) النواقيس : جمع ناقوس، من ألفاظ النصرانية.

(٦٠) ينظر : الديارات، ص : ١٦٤.

(٦١) الشعانين : سريانية مشتقة من العبرية وهو : عيد للنصارى، ينظر : الديارات، ص : ٦٤.

(٦٢) للاستزادة ينظر : الديارات للشابشتي في مواضع متفرقة.

(٦٣) ينظر : اتجاهات الشعر العربي، دكتور مصطفى هدارة، ص : ٢١٧، وهو ينقل هذا الرأي عن كتاب "حركات الشيعة المتـطرفين"، و "شعراء الدولتـين"، دكتور حسـن عطوان، ص : ٣٠٨ وما بعدها، و "العصر العباسي الأول"، دكتور شوقي ضيف، ص : ٣٨٣.

(٦٤) من الضروري أن نشير هنا إلى ما ذكره الشيخ عبد القادر باش أعيان العباسي، وهو من رجالات البصرة وعلمائها في كتابه موسوعة تاريخ البصرة، ١/ ١٤٧؛ إذ يقول : "محلات البصرة كثيرة وعديدة منها ما سمي بأسماء عربية، ومنها أعجمية باسم الذين استوطنوا البصرة من سبي الفتوح ودخلوا الإسلام فنزعوا منازع العرب واتبعوا عاداتهم"، ويورد من

هذه المحلات الأعجمية محلة الأساورة. وسكة اصطفانوس. وسكة البخارية، وجهار سوج بهلة، ومحلة بخيرم، وواضح من الأسماء أن أهلها أخلاط من الفرس والهنود وأهل بخارى، ويقول الدكتور هدارة : "والواقع أن الثقافة الهندية كانت بين الثقافات التي تسربت إلى الفكر العربي عن طريق البصرة"، ينظر : اتجاهات الشعر، ص : ١٠٧، ويسوق أسبابًا لذلك.

(٦٥) يقول دكتور شوقي ضيف : ".. وبمجرد أن نزل العرب الكوفة نزلتها معهم بقايا الجيوش الساسانية التي انضمت إليهم، ويقال إنهم بلغوا أربعة آلاف، وكان نقيبهم يسمى ديلم، فنسبوا إليه، وسمّوا حمراء ديلم، ونزلها معهم رقيق الحروب التي خاضوها، وأخذ يتوافد كثير من النبط والتجار والصناع. العصر الإسلامي، ص : ١٥٤.

(٦٦) العمدة، ١/ ٥٨.

(٦٧) من الواجب أن نشير هنا إلى أن ظهور الألفاظ الفارسية في الشعر العربي قديم يعود إلى العصر الجاهلي، واستمر في العصرين الإسلامي والأموي ولكن بدرجات قليلة، غير أنه كثر كثرة واضحة في العصر العباسي لازدياد الامتزاج الحضاري بين الأعراق. ينظر : اتجاهات الشعر، ص : ٨٥ وما بعدها.

(٦٨) يقول الدكتور إبراهيم السامرائي : "ومن المفيد أن أشير إلى أن عامة هذا الدخيل الفارسي الذي عرفه العرب في عصورهم المتقدمة وفي العصور التي أعقبتها ألفاظ ذات مدلول حسي وأدوات ومواد يستعملها الناس. وقد تكون نباتًا أو شجرًا أو طعامًا". ينظر : الدخيل في الفارسية، ص ح.

(٦٩) اسفهر : الملك.

(٧٠) ناهيد : كوكب الزهرة.

(٧١) تير : كوكب عطارد، ينظر فيها : معجم المعربات الفارسية، دكتور محمد التوبخي.

(٧٢) نيمرش : وتلفظ نيمبرشت، وهو ما شوي نصف شيّ، وخش : طيب وجيد، ينظر : معجم المعربات الفارسية، دكتور محمد التوبخي.

(٧٣) هرمزد : هو أهور امزد إله النور عند الفرس، والروز : هو اليوم، يقول : إن اليوم هو يوم هذا الإله وعيده فلنطرب ونشرب. ينظر : الفن ومذاهبه، دكتور شوقي ضيف، ص : ١٢٢، والمجموع اللفيف، دكتور إبراهيم السامرائي، ص : ١٣.

(٧٤) تاريخ ابن خلدون، ١/ ٣١١.

(٧٥) قدم الدكتور عصام الدين عبد الرءوف في كتابه الحواضر الإسلامية، ص : ١٩٣ وما بعدها، وصفًا جيدًا لقصور الخلفاء والوزراء والحياة فيها، وكذلك صنعت رمزية الأطرقجي في كتابها الحياة الاجتماعية في بغداد، ص : ٢٣٠ وما بعدها.

(٧٦) الأغاني، ٢٣/ ٢٠٦.

(٧٧) الأغاني، ٢٠/ ٥٨.

(٧٨) الأغاني، ١٩/ ٣٧٩.

(٧٩) عـن هـذا الموضوع ينظر : كتابي : "النقد الأدبي في كتاب الأغاني"، ١/ ٣٣ وما بعدها.

(٨٠) وانتشرت في بغداد مجالس أخرى غير مجالس الغناء مثل مجالس المناظرة، والوعظ والقصاص، والزنادقة وغيرها، وهي تشير بمجموعها إلى خصوبة الحياة الثقافية ومشاركة طوائف كثيرة من الناس فيها. ينظر عن تلك المجالس : الحياة الاجتماعية في بغداد، ص : ٣١١ وما بعدها.

(٨١) العصر العباسي الأول، دكتور شوقي ضيف، ص : ٦١، وينظر كذلك : الحواضر الإسلامية، ص : ٢٠٢ وما بعدها، ففـيه تفصيل واف عن الغـناء، والحياة الاجتماعية في بغداد، ص : ٣٢٢ وما بعدها.

(٨٢) من الواجب أن نشير هنا إلى تلك المناظرات التي وقعت بين طوائف كثيرة، وخصوصًا بعد ظهور الشعوبية والزندقة، وما تفرع عنها من نحل ومذاهب، فهذه الأخرى قد بثت في المجتمع روحًا جديدة، وأدت إلى احتكاك الثقافات من جهة، وشحذ العقل من جهة أخرى.

(٨٣) يشير اليعقوبي في كتابه البلدان، ص : ١٢٠، أن حنين بن إسحاق كان يمشي في شوارع بغداد وهو ينشد شعرًا بالرومية للشاعر هوميروس، ولهذا الخبر دلالته كما هو واضح.

(٨٤) ينظر على سبيل المثال : اتجاهات الشعر ، دكتور مصطفى هدارة، ص : ٩٤ وما بعدها، والعصر العباسي الأول، دكتور شوقي ضيف، ص : ١٤٨ وما بعدها، ومما يذكر هنا أن شخصًا رأى الشاعر العتابي يعكف على كتب العجم، وينسخ بعض صحفها فسأله متعجبًا : لِم تكتب كتب العجم؟ فأجابه منكرًا سؤاله : وهل المعاني والبلاغة إلا في كتب العجم؟ اللغة لنا والمعاني لهم، ينظر : كتاب بغداد، ص : ٨٧.

(٨٥) يقول الدكتور شوقي ضيف : "ولعل أكبر شاعر في العصر يصور ذخائر الفكر حينئذ في الشعر ومدى ما أثرت الحياة العقلية فيه ابن الرومي، ويبدو عنده بوضوح أنه عكف على جميع الثقافات التي عاصرته.. وكان مما دفعه إلى ذلك دفعًا اعتناقه مبكرًا مذهب الاعتزال"، ينظر : العصر العباسي الثاني، ص : ١٩٧.

(٨٦) يصفه المرتضى في أماليه، ٢/ ١٣٢، بقوله : ".. فأما أبو إسحاق النظام فإنه كان مقدمًا في العلم بالكلام، حسن الخاطر، شديد التدقيق والغوص على المعاني". ويقول عنه صاحب عيون التواريخ، ص : ٦٨، "وشعره في غاية الجودة، ولكنه يبالغ في مقاصده حتى يخرج بكلامه إلى المحال".

(٨٧) الحيوان، الجاحظ، ٦/ ٢٩٢.

(٨٨) الرد على النصارى، ص : ٢٠.

(٨٩) تمتع أهل الذمة ببغداد بقسط وافر من الحرية في أداء شعائرهم، والاحتفال بأعيادهم، وكان الجاثليق يتولى أمور النصارى، بينما كان رأس الجالوت يدبر شئون اليهود، وكان الخليفة يكتب عهدًا لبطريق اليعاقبة، وأكد هذا المعنى أبو يوسف في كتابه الخراج موجهًا خطابه إلى الخليفة : "ينبغي أن تتقدم بالرفق بأهل الذمة، والتفقد لهم حتى لا يظلموا، ولا يؤذوا، ولا يكلفوا فوق طاقاتهم، ولا يؤخذ شيء من أموالهم . ينظر : الحياة الاجتماعية في بغداد، ص : ١٥١.

(٩٠) اتجاهات الشعر، دكتور مصطفى هدارة، ص : ٨٩.

(٩١) العصر العباسي الأول، ص : ٩٢، جرت مناقشات كثيرة بين الدارسين عن قضية تراجع العربية في هذا العصر ببغداد بحيث غلبت عليها لغات أخرى، وانسحب هذا أيضًا على النظم الاجتماعية، والسياسية فيها. ورد عليهم آخرون. ولكننا نستطيع القول باطمئنان إن العربية بقيت لها السيادة في مناحي الحياة المختلفة : السياسية، والثقافية، والاجتماعية، وليس ما نلحظه من تغير سوى سعة في العربية، وشجاعة فيها على حد قول ابن جني، بحيث تمكنت بموجبها من استيعاب علوم العصر ونظمه الجديدة أو الوافدة، ينظر : اتجاهات الشعر، ص : ٤٩ وما بعدها، وينظر أيضًا : بغداد مدينة السلام، دكتور صالح أحمد العلي، ص : ٨٩ وما بعدها، والحياة الاجتماعية في بغداد، رمزية الأطرقجي، ص : ٩٥ وما بعدها.

(٩٢) الوساطة، ص : ١٨ – ١٩.

(٩٣) الشعر في بغداد، ص : ٢٩١.

(٩٤) يقول الفرزدق :

وَهَبَ القصائدَ لي النوابغُ إذْ مضوا ... وأبو يزيدَ وذو القروح وجرول

والفحل علقمةُ الذي كانت له ... حلل الملوك كلامه لا ينحل

وأخو بني قَيس وهنَّ قتلنه ... ومهلهل الشعراء ذاك الأول

والأعشيان كلاهما ومرقش ... وأخو قضاعة قوله يتمثل

ولقد ورثت لآل أوس منطقًا ... كالسم خالط جانبيه الحنظل

دفعوا إليَّ كتابهن وصية ... فورثتهن كأنهن الجندل

ديوان الفرزدق، ٢/ ١٥٥.

[٩٥] هذا قبل أن يتزهد، وقد أعجبني وصف الدكتور الجواري له بأنه "كان بارعًا يتقن فن الحياة، ويلبس لكل حـــال لبوسها، فاتخذ لنفسه صنعة الزهد والنسك وتســـتر بها، وترك ما كان عليه من التخنث والمجون ليحظى عند الخلفاء"، الشعر في بغداد، ص : ٢١٩.

[٩٦] الشعر في بغداد، ص : ٢١٥.

[٩٧] المرجع السابق، ص : ٢١٥.

[٩٨] من الضروري أن لا نتابع بعض الدارسين المحدثين في الهجوم الشديد على ذلك الجانب العابث من حياة أولئك الشعراء، بل نحاول أن نلتمس الأسباب التي دعتهم إلى ذلك، وهي أسباب متشابكة معقدة، وخصوصًا حين تقترن بالسخرية المرة التي وجدناها عندهم، وقد استمرت هذه الظاهرة إلى مرحلة متأخـــرة في بغداد، وممن يذكر هنا الشاعر المشهور ابن الحجاج الذي ملأ شعره ببذيء الكلام مع سخرية لاذعة ولكن ممّن؟

[٩٩] ينظر : اتجاهات الشعر، دكتور مصطفى هدارة، ص : ١٥٩ وما بعدها.

[١٠٠] المرجع السابق، ص : ١٩٢.

[١٠١] ينظر : الشعر في بغداد، ص : ٢١٢.

[١٠٢] المرجع السابق، ص : ١٦٨.

[١٠٣] إن ما كتب عن أبي نواس كثير، ينظر على سبيل المثال : تطور الخمريات في الشعر العربي، دكتور جميل سعيد، ص : ٢٠٣ وما بعدها، وفن الشعر الخمري، إيليا حاوي، ص : ٢٠٩ وما بعدها، وغيرهما.

[١٠٤] الشعر في بغداد، ص : ٢٢٩.

[١٠٥] الأغاني، ٦/ ٢٣.

[١٠٦] المرجع السابق، ٢٣/ ١.

[١٠٧] ومما يجب إضافته هنا أن شيئًا من التغير أصاب ذلك الشعر، واعتملت داخله نوازع لعلها تبتعد به قليلاً عن القديم، من ذلك ما نراه من إفراط في إطلاق الصفات على الممدوح، أو اتخاذه صديقًا، وهي إرهاصات لما وجدناه عند المتنبي.

[١٠٨] الشعر في بغداد، ص : ٢٢٠.

[١٠٩] أخبار أبي تمام، للصولي، ص : ٩٥.

[١١٠] الفن ومذاهبه، ص : ١٧٤.

(١١١) ينظر عنه : الشـــعر في بغـــداد، ص : ٢٥٤ وما بعدها، واتجاهات الشعر، دكتور مصطفى هدارة، ص : ٣٨٠، من حيث علاقته بالثقافتين اليوناتية والهندية.

(١١٢) ينظر عنه : متصوفة بغداد، عزيز السيد جاسم، وهو دراسة طيبة عن هذا الموضوع تتضمن مقومات الشعر الصوفي البغدادي، وأشهر أعلامه.

(١١٣) ينظر عنه : الفنون الشعرية غير المعربة، دكتور رضا القريشي، ١/ ٥ وما بعدها.

(١١٤) ينظر تفصيل هذا في كتاب : بغداد مدينة السلام، دكتور العلي، ص : ٣٤ وما بعدها.

(١١٥) عصر الدول والإمارات، ص : ٢٥٤.

المصادر والمراجع

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، الدكتور محمد مصطفى هدارة، الإسكندرية، سنة ١٩٨١.

(٢) أخبار أبي تمام، الصولي، حققه وعلق عليه : محمد عبده عزام وآخرون، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، سنة ١٩٨٠.

(٣) إخبار العلماء بأخبار الحكماء، القفطي، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، بلا تاريخ.

(٤) أدب المعتزلة، الدكتور عبد الحكيم بلبع، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٧٩،

(٥) أزمة المصطلح العربي في القرن التاسع عشر، محمد سواعي، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، سنة ١٩٩٩.

(٦) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الثقافة، بيروت، سنة ١٩٥٧.

(٧) أمالي المرتضى، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، سنة ١٩٧٦.

(٨) بغداد مدينة السلام، الدكتور صالح أحمد العلي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، سنة ١٩٨٥.

(٩) البلدان، اليعقوبي، باعتناء دي غويه، ليدن، مطبعة بريل، سنة ١٨٩٢، قامت بتصويرها دار صادر، بيروت.

(١٠) تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، ترجمة مجموعة من الأساتذة بإشراف : الدكتور محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٣.

(١١) تاريخ الأدب العربي، الدكتور عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، سنة ١٩٩٢.

(١٢) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بلا تاريخ.

(١٣) تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، نقله إلى العربية : الدكتور عرفة مصطفى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سنة ١٩٨٣.

(١٤) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، الدكتور جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٥١.

(١٥) تاريخ التمدن الإسلامي، جورجي زيدان، القاهرة، سنة ١٩٥٨.

(١٦) تاريخ الطبري، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.

(١٧) تصنيف العلوم بين الفارابي وابن سينا، الدكتور محمد علي أبو ريان، بحث منشور بمجلة عالم الفكر الكويتية، العدد الأول، سنة ١٩٧٨.

(١٨) تطور الخمريات في الشعر العربي، الدكتور جميل سعيد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٤٥.

(١٩) التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق، الدكتور إبراهيم السامرائي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٢.

(٢٠) التيارات الأجنبية في الشعر العربي، الدكتور عثمان موافي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، سنة ١٩٩١.

(٢١) جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، حققه : محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، سنة ١٩٦٤.

(٢٢) حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر، جاك تاجر، دار المعارف المصرية، سنة ١٩٤٥.

(٢٣) حركة الترجمة في المشرق الإسلامي، الدكتور رشيد الجميلي، دار الشئون الثقافية العامة، العراق، سنة ١٩٨٦.

(٢٤) الحواضر الإسلامية الكبرى، الدكتور عصام الدين عبد الرءوف، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٦.
(٢٥) الحياة الاجتماعية في بغداد، رمزية الأطرقجي، مطبعة الجامعة، بغداد، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٢.
(٢٦) الحيوان، الجاحظ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، منشورات المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، لبنان، سنة ١٩٦٩.
(٢٧) خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، القسم العراقي، حققه وضبطه وشرحه وكتب مقدمته : محمد بهجت الأثري، أعد أصله وشارك في تحقـيقه : الدكتور جميل سعـيد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، سنة ١٩٥٥.
(٢٨) الدخيل في الفارسية والعربية والتركية، الدكتور إبراهيم السامرائي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٧.
(٢٩) دمية القصر، الباخرزي، تحقيق ودراسة : الدكتور محمد التونجي، لم يذكر مكان وسنة الطبع.
(٣٠) الديارات، أبو الحسن الشابشتي، تحقيق : كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٨٦.
(٣١) ديوان الفرزدق، دار صادر، بيروت، سنة ١٩٦٦.
(٣٢) رسائل الجاحظ، تحقيق : عبد السلام هارون، القاهرة، سنة ١٩٧٩.
(٣٣) الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، الدكتور أحمد عبد الستار الجواري، دار الكشاف، بيروت، سنة ١٩٥٦.
(٣٤) شعراء بغداد من تأسيسها حتى اليوم، على الخاقاني، مطبعة أسعد، بغداد، سنة ١٩٦٢.
(٣٥) شعراء الدولتين الأموية والعباسية، الدكتور حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨١.

(٣٦) صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، تقي الدين بن تيمية، نشره وعلق عليه : علي سامي النشار، القاهرة، سنة ١٩٥٥.
(٣٧) طبقات الشعراء، ابن المعتز، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٨١.
(٣٨) عصر الدول والإمارات، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٩٠.
(٣٩) العصر العباسي الأول، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الرابعة عشرة، سنة ١٩٩٦.

obeikan

الأستاذ الدكتور عبد السلام المسدي : السادة الأفاضل، باسمكم جميعًا نشكر الدكتور وليد خالص على هذا البحث الذي أوجز تقديمه، وقد سعدت شخصيًّا بقراءة البحث كاملاً استعدادًا لأمانة إدارة الجلسة، ولقد شدني فيه نصفه الأول الذي تفضل الدكتور العارض بأنه قال : إنه مدخل، ولكني استطرفته واستمتعت به بشكل خاص، لأني رأيت فيه تاريخًا ثقافيًّا للبيئة، ورأيت فيه ضربًا من التأسيس الثقافي المعرفي لهذا الموضوع تحديدًا إذا قلنا : إنه موضوع نقدي شعري، لكنه ذو أبعاد ثقافية حضارية، كيف؟ وهو يتصل ببغداد مثلما تعرفون.

الكلمة الآن للأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكي، يقدم لنا في هذه الدقائق الثلاثين عرضًا لبحثه الشيق "الشعر وتطوره في الأندلس" الذي اطلعت عليه، فليتفضل الأستاذ الباحث الكريم.